التنوير الإسلامي

١

الصحوة الإسلامية في عيون غربية

تأليف

د. محمد عمارة

في التنوير الإسلامي ١

الصحوة الإسلامية في عيون غربية

تأليف

د. محمد عمارة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



اسم السلسلة : فى التنوير الاسلامى

اســم الكتاب : الصحوة الاسلامية فى عيون غربية

تــأليـــــف : دكتور / محمد عمارة

تاريخ النشــر : مارس ١٩٩٧

رقم الإيــداع : ١٤٢٠٧ / ٩٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-14-0549-7

النـاشـــــر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

المركـز الرئيسى : ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١ .
فاكس : ٣٣٠٢٩٦ /٠١١ .

مركـز التـوزيـع : ١٨ شارع كامل صدقى - الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ - فاكس ٥٩٠٣٣٩٥ /٠٢ .

إدارة النشــــر : ٢١ ش أحمد عرابى (برج النهضة) المهندسين - القاهرة
ت : ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ فاكس : ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢ .

١

مصطلح الأصولية ؟؟

فى «الملف» الذى أعدته ونشرته مجلة (الوسط) - فى أعدادها السبعة - ٩٦ - ١٠٢ الصادرة من ٢٩ - ١١ - ١٩٩٣م إلى ١٠ - ١ - ١٩٩٤م - عن رؤية الاستشراق المعاصر للظاهرة « الأصولية » الإسلامية ، وخاصة فى العالم العربى . . طالعنا آراء ثلاثين مستشرقا ، من أبرز أعلام الاستشراق المعاصر - بل إن من بينهم من هم أبرز المستشرقين المعاصرين بإطلاق . .

كذلك مثل هؤلاء المستشرقون أهم شعوب الغرب ، المهتمة بالعالم الإسلامى ، والمتابعة لقضاياه . . وغطت تخصصاتهم مختلف ميادين وحقول علوم الاستشراق - الأكاديمى منها والسياسى . . الأدبى منها واللغوى . . الاجتماعى منها والاقتصادى ٠٠ الدينى منها والدنيوى . . القديم منها والحديث والمعاصر - كما غطت منطلقاتهم أغلب مناهج ومذاهب وفلسفات الغرب فى النظر والبحث والتحليل . . وأيضا تنوعت التجارب التاريخية والمعاصرة لشعوب هؤلاء المستشرقين وحكوماتهم وتفاوتت من نزعات وحملات الاستعمار لعالمى العروبة والإسلام . .

الأمر الذى جعل ويجعل لهذا «الملف» ميزة البلورة للصورة الغربية ، الأقرب إلى التكامل ، عن «الظاهرة الإسلامية» فى ديار العروبة والإسلام ، وفى المهاجر التى تعيش فيها أقليات إسلامية .

فهذا «الملف» ليس رأى مستشرق – مهما بلغ علمه . . وكان حظه من الإنصاف أو التحامل . . ولا رأى مؤسسة بحثية – مهما كان حظ موقعها من الصداقة أو العداوة . . ونصيب باحثيها من الموضوعية أو الذاتية . . وإنما هو «بانوراما» الرؤية الغربية – من روسيا إلى أمريكا – عبر إيطاليا وفرنسا وألمانيا وهولندا وأسبانيا وإنجلترا – . . فكأنه «العدسة الغربية اللامّة» للظاهرة الإسلامية بعامة ، وفى العالم العربى على وجه الخصوص . . ويكفى – فى الدلالة على ذلك – أن تكون هذه «العدسة» قد جمعت رؤى «جاك بيرك» ، و «مكسيم رودنسون» ، و «دومينيك شوفاليه» و«بيارتيسيه» من فرنسا – و «هومى بابا» ، و «روبن أوستل» ، و«فردها ليداى» ، و «ديريك هوبوود» ، – من إنجلترا – و «فيتالى ناوومكين» ، و «الكسندر سميرنوف» ، و «أرتور سعادييف» – من روسيا – و «بيدرو مارتينيث مونتانيث» ، و «كارمن رويث» ، و«مرثيدس ديل آمو» ، و «فرناندو دى أغريدا» ، و «رودولف بيترز» ، و «يان بروخمان» ، و «يوهانس نانسن» – من هولندا – و «روجر أوين» ، و «جون فول» ، و «جون إيسبوسيتو» ، و «ريتشارد بوليت» – من أمريكا – و «إيزابيلا كاميرا دافليتّو» ، و «فرانشيسكو غابرييلى» ، و «دانييلا آمالدى» ، و «أداليندا غاسبارينى» ، و«سلفاتورى بونو» ، و «كلاوديو لوياكونو» – من إيطاليا – و «جودرون كرامر» ، و «أردموته هيللر» ، و «ستيفان فيلد» ، و «أودو شتا ينباخ» ، – من ألمانيا – . .

يكفى أن تضم هذه «العدسة» رؤى أعلام الاستشراق هؤلاء ، لتكون – بحق – «عدسة لامّة» لرؤية الغرب «للشأن الإسلامى» الذى تصاعد الجدل حوله فى هذه السنوات . .

وبسبب من قيمة ومكانة هذه الرؤية الاستشراقية لأخطر شئوننا المعاصرة ، كانت الوقفة الجادة والمتأنية التى وقفتها حيال هذا «الملف» . . والتى أقدم معالمها إلى القارئ فى هذه الصفحات . .

* * *

ولقد آثرت فى دراسة هذا الملف ، والتقويم لوجهات نظر أصحابه ، أن أعتمد منهاج «التفكيك والتركيب» سبيلا «للتحليل والتقويم» . . الأمر الذى وضع ويضع يدنا على أهم المعالم التى رآها هؤلاء المستشرقون فى صورة «الحالة الإسلامية » ، ورسموها فى إجاباتهم على الأسئلة الثلاثة التى سألهم الإجابة عنها مراسلوا (الوسط) - فيصل جلول (فرنسا) ، عمار الجندى (بريطانيا ، الولايات المتحدة) ، إسماعيل زايد (هولندا) ، عرفان رشيد (إيطاليا) ، شوقى الريس ، طلعت شاهين (إسبانيا) ، إيغور تيموفييف (روسيا) ، عبد الفتاح خليل (ألمانيا) - . . وهى الأسئلة التى تقول :

١ - كيف تفسر الظاهرة الأصولية ، وما يحدث فى العالم العربى اليوم؟

٢ - ماهو ، فى رأيك ، انعكاس هذه الظاهرة على العلاقة بالغرب ، وعلى المهاجرين العرب والمسلمين؟

٣ - ما الذى يميز الحركات الأصولية بين بلد عربى وآخر ، وكيف ترون إلى مستقبل تلك الحركات عموما؟ .

ولقد أثمر «التفكيك . . والتركيب . . والتحليل» لإجابات المستشرقين على هذه الأسئلة . . أثمر «خارطة» الرؤية الاستشراقية للظاهرة الإسلامية ، تلك التى تميزت فى تضاريسها ومعالمها خمس قضايا :

أولها: قضية مصطلح «الأصولية» . . ومواقف المستشرقين من صدق تعبيره عن الحالة الإسلامية وحركاتها؟

وثانيها: قضية التنوع والوحدة فى فصائل الحركة الإسلامية وتوجهاتها . . حقيقتها؟ . . ومداها؟ . . وميادينها؟ ودلالتها؟ . .

وثالثها: الأسباب الفكرية . . والمادية - التاريخية . . والمعاصرة - الداخلية . . والخارجية - التى أفرزت وأثمرت وأبرزت هذه الحركات الإسلامية ، وهذا المد الإسلامى؟ . .

ورابعها: مشكل العلاقة بين المد الإسلامى وبين الغرب؟ . . ومدى ما فى الحديث عن خطر المد الإسلامى على الغرب من حقيقة أو وهم؟ . . ومن هو الصانع الحقيقى والأكبر «لصورة هذا الخطر»؟ . .

وخامسها: نظرة على المستقبل . . وهل لهذه الحركات الإسلامية من هذا المستقبل نصيب؟ . . وإن كان لها منه نصيب ، فما هو حجمه؟ . . وماهى الشروط التى لابد من توافرها حتى لا ينبذ هذا المستقبل تلك الحركات على «قارعة التاريخ» - وفق عبارة أحد المستشرقين - ؟ ! . .

تلك هى معالم «الخارطة» التى رسمتها إجابات ثلاثين مستشرقا - مثلوا مدارس الاستشراق الغربى . . وتيارات حضارته . . وألوان أيديولوجياته - ومرجعيات دياناته . . ومصالح دوله وقومياته وتكتلاته . . ودرجات ألوان الطيف فى علاقات هذا الغرب بوطن العروبة وعالم الإسلام- . .

وهى «الخارطة» التى أحسبها من أهم الصور التى رسمها علماء الغرب للظاهرة الإسلامية . . التى هى أعظم وأخطر ظواهر العصر الذى نعيش فيه . . والتى استحقت ، لذلك ، أن نقف أمامها وقفة جادة ، تليق بما بذل فيها من جهد ، وبما لموضوعها من آثار تزلزل واقعنا العربى والإسلامى زلزالا شديدا . . ! . .

مصطلح «الأصولية»:

لقد رفض أغلب المستشرقين إطلاق مصطلح «الأصولية» بمعناه الغربى ، المحمل بالدلالات السلبية ، على الحركات الإسلامية . . ورفضوا المساواة بين الإسلام - فى علاقته بالسياسة والدولة - وبين الديانات الأخرى . . وحتى الذين أطلقوا على «حركات العنف والراديكالية» الإسلامية مصطلح «الأصولية» ، رفضوا التسوية بينها وبين أصوليات الديانات الأخرى . . وذلك ، لدورها الإحيائى - الأخلاقى والروحى - . . ولبرامجها ، التى تصنفها فى «حركات التغيير» ، وليس فى «التقليد والجمود الأصولى» - كما هو حال الأصوليات الغربية - ولتميز مرجعيتها الإسلامية عن المرجعيات الدينية للأصوليات الأخرى . .

ولفت كثير من المستشرقين الأنظار إلى ما أسماه أحدهم بـ«الأصوليات الليبرالية الغربية» ، الطامعة فى اقتصاديات العالم الإسلامى وموقعه الاستراتيجى . . وإلى حملة هذه «الأصوليات الليبرالية» على العرب والمسلمين ، وذلك بإلصاق مصطلح «الأصولية» - ذى المعنى السلبى - على الحركات المعارضة للنموذج الغربى - الذى فشلت تطبيقاته فى الواقع العربى - والمعارضة لنظم الحكم الفاشلة والعاجزة والفاسدة والتابعة ، التى حكمت فى حقبة مابعد الاستقلال . .

نعم . . رأى أغلب المستشرقين هذه الآراء . . ولما كنت على يقين من أن هذه الآراء التى ارتآها هؤلاء « العلماء الغربيون» ستصدم كثيرا من «مثقفينا المتغربين» ، وستبرز التفاوت بين « علم الأئمة» و «جهل المأمومين» . . ! . . فلقد آثرت عرض آراء علماء الاستشراق

فى كل هذه القضايا بذات النصوص التى كتبوها ، والتى نشرتها (الوسط) فى هذا «الملف» الفريد! . .

فأبرز المستشرقين الغربيين - إن لم يكن عميدهم - «جاك بيرك» - يرفض إطلاق مصطلح «الأصولية» على الظاهرة الإسلامية . . ويدعو إلى التمييز ، فى المد الإسلامى ، بين عامة «المسلمين» وبين «الإسلاميين» ، الذين يحملون بديلا إسلاميا للمدرسة الغربية ونموذجها فى التحديث . . فيقول : «أنا أرفض تعبير «الأصولية» ، لأنه آت من النزاعات داخل الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية . . هناك مسلمون (العامة) ، وهناك الإسلاميون الذين يشددون على قدرة الإسلام على إيجاد حلول مناسبة لمشاكل الحياة اليومية ، وقدرته على بناء دولة ومؤسسات وهؤلاء لا يقفون عند الطبيعة الدينية للإسلام فقط . هذه أطروحة من نسميهم الإسلاميين . . إنها حركات تسعى إلى تقريب العالم العربى من منابعه . . ولديهم خطابات تجعلهم مختلفين بعضهم عن بعض ، لكنهم يلتقون فى الدعوة إلى الرجوع إلى الأصول ، وبخاصة إلى القرآن ، ويدعون إلى إعادة تأصيل القرآن باعتباره قادرا على تقديم الحلول للمشاكل التى يطرحها العالم المعاصر . يطرحون ذلك فى مواجهة المجتمعات التى وضعت نفسها منذ ١٠٠ سنة فى مدرسة الغرب ولم تحقق النجاحات المطلوبة» . .

فالظاهرة الإسلامية - فى رأى «جاك بيرك» - ليست «أصولية» - بالمعنى السلبى الغربى لهذا المصطلح - وإنما هى حركات إسلامية تسعى إلى تقريب مجتمعاتها من منابعها ، وإقامة دولة ومؤسسات تقدم حلولا لمشكلات العصر ، إنطلاقا من مرجعية

القرآن ، بدلا من مرجعية المدرسة الغربية التى لم تحقق النجاحات المطلوبة على امتداد المائة عام الماضية . .

ومع «جاك بيرك» تقف الأغلبية الساحقة من المستشرقين – الذين استطلعت (الوسط) آراءهم– فـ «روجر أوين» – أمريكا – يرى أن مصطلح «الأصولية» مصطلح غربى ، أسيء استعماله عندما أطلق على الحركات الإسلامية العنيفة ، ويقول : « أرى أن كلمة الأصولية أسيء استعمالها لوصف الفاعلية الدينية الإسلامية (العنيفة) فى الشرق الأوسط ، وكانت صيغت أصلا فى الغرب لوصف حركة قامت أوائل القرن الحالى ، وتميزت برفضها عددا من مظاهر الحياة الحديثة المعاصرة . .» .

فهو يرفض وصف «الأصولية» – بالمعنى الغربى – حتى لحركات العنف والراديكالية الإسلامية! . .

ويضيف «جون إيسبو سيتو»– أمريكا – إلى هذا الرأى ، التنبيه على خطأ اعتبار الإسلام معادلا للأصولية ، بالمعنى الغربى ، فيقول : «من الخطأ اعتبار الإسلام معادلا للأصولية . . واعتبار الأصولية مرادفة للتطرف والإرهاب» . .

أما «هومى بابا» – بريطانيا – فإنه يضيف إلى هذه الآراء حقيقة ملفتة للأنظار ، وذلك عندما يتحدث عن وجود «أصولية ليبرالية» غربية هى التى تقود حملة إلصاق مصطلح «الأصولية» – بمعانيه الغربية السلبية – على الظاهرة الإسلامية فى العالم العربى ، لتفتعل منه عدوا بديلا للشيوعية ، فيقول : «الأصولية : كلمة ذات دلالة سلبية تلصق بالعالم العربى . . مع أن الظاهرة عالمية . .بل هناك الإرث التحديثى ، الذى غدا «أصولية ليبرالية ديمقراطية» نجدها فى الولايات المتحدة ومعظم الدول الأوربية . . والأصوليون

الليبراليون الديمقراطيون ، الذين ابتهجوا بموت الشيوعية وانتصار القيم الرأسمالية الليبرالية ، يواصلون الترويج للعالم الإسلامى كبديل من «إمبراطورية الشر» السوفياتية ، واهتمامهم بالوطن العربى يعود أساسا إلى غناه بالثروات الطبيعية والاستراتيجية ، كما سيتابعون مطالبة المهاجرين ، من مسلمين وغيرهم ، بالتخلى عن تاريخهم وثقافتهم والاندماج بالشعب «المضيف» ، أو بتحمل معاناتهم على يد العنصرية المؤسساتية والعامة» . .

فنحن - برأى المستشرق البريطانى - أمام «مؤامرة» «أصولية ليبرالية غربية» على ثروات العالم العربى وموقعه الاستراتيجى وثقافته وتاريخه . . وهى تتوسل إلى تحقيق مقاصدها بهذه الحملة التى تلصق بالعرب وبالمهاجرين العرب الصفات السلبية لمصطلح «الأصولية»! . .

أما «روبن أو ستل» - بريطانيا - فيرى فى مصطلح «الأصولية» مصطلحا عاجزا عن التعبير عن التنوع الموجود فى الظاهرة الدينية الإسلامية ، فيقول : «لدى - مثل كثيرين - مشكلة مع عبارة «الأصولية» ، فهى تفتقر إلى التحديد والدقة ، وتستخدم على نحو سائب جدا فى وصف أفراد وجماعات وحركات شديدة الاختلاف فى العالم الإسلامى ، مثل :

(أ) الصحوة الدينية منذ سنة ١٩٧٠م فى دول جميع مواطنيها أو معظمهم مسلمون .

(ب) الأيديولوجيا السياسية الجبارة التى قبضت على بعض بلدان العالم العربى خلال السنوات العشرين الأخيرة حتى صار الإسلام سمة رئيسية للخطاب السياسى . .

(جـ) الرغبة فى وضع الشريعة من جديد موضع التطبيق .

. . إن الصورة المألوفة للأصولى هى نمطية مكرسة واختزالية ، وهى عاجزة حتى عن إيضاح التنوع الموجود فى الأصولية ذاتها . .»! . .

ومن روسيا ، يرى «فيتالى ناوومكين» : أن وصف «الأصولية» ، بمعناه السلبى الغربى ، لا ينطبق على الواقع الإسلامى . . وأن سلبيات الحركات الإسلامية هى «التطرف» أما إيجابياتها فهى : العودة إلى الأصول الدينية ، والأصالة الشعبية ، ومحاولة إيجاد طريق خاص لتطور المجتمعات العربية والإسلامية . . فيقول : «مصطلح الأصولية الإسلامية» : مصطلح أطلق فى الغرب ، ولا ينطبق بدقة على الحياة الواقعية . ففى الأصولية نفسها شحنة إيجابية وشحنة سلبية . ومن الأصح الحديث عن ظاهرة التحرك الإسلامى أو الإسلام السياسى ، مع الانحراف نحو التطرف – وهو ما يقصده عادة أولئك الذين يضمنون مفهوم «الأصولية» معنى سلبيا . أما الأصولية نفسها ، كعودة إلى الأصول الدينية ، وأصالة هذا الشعب أو ذاك ، ومحاولات لإيجاد طريق التطور الخاص ، فقد يكون له طابع إيجابى أيضا» . .

فنحن – برأى «فيتالى ناوومكين» – أمام ظاهرة «التحرك الإسلامى أو الإسلام السياسى» . . ولسنا أمام «أصولية» بالمعنى الغربى . .

أما المستشرقة الإسبانية «كارمن رويث» ، فإنها تنتقد استخدام مصطلح «الأصولية» ، للتعبير عن الظاهرة الإسلامية ، لأنه مصطلح غامض ، لا يميز استعماله بين الأصولية التى تمثل الأصالة الحضارية ، وبين رد الفعل الراديكالى على العدوان الواقع على الذات الحضارية من الخارج والداخل . . وترى أن الأصولية ، بمعناها

الشائع ، تتعارض مع روح الدين الإسلامى . . ثم تدعو إلى التمييز بين «أصوليات الدول» ، التى تتحالف مع القوى الخارجية ، وبين «أصوليات الجماعات» ، التى تختلف من بلد إلى آخر . . فتقول : «إن لفظة «أصولية» مشوبة ببعض الغموض ، فهى أحيانا يراد بها التمسك بمبادئ أخلاقية لا يجوز التخلى عنها ، وأحيانا أخرى تأتى رديفة للراديكالية السياسية من حيث كونها نمطا أو شكلا لعلاقة بين مواطنين فى مجتمع واحد ، أو بين دولة وأخرى على الصعيد العالمى . . الأصولية هى الفرع الدينى الطالع من جذع الأصالة بمفهومها الحضارى العام . . والأصولية الراديكالية هى ردة فعل بدائية للدفاع عن الذات إزاء شتى أشكال العدوان والظلم الخارجيين والداخليين أحيانا . . وهى تتعارض أصلا مع روح الدين الإسلامى . وهناك أصوليات الدول ، التى تتحالف عادة مع القوى الأجنبية . . وأصوليات الجماعات التى تختلف من بلد إلى آخر ، وفيما بينها ضمن بلد معين . .»

وعلى درب الدعوة إلى التمييز بين «الدين» وبين «الأصولية» بالمعنى الغربى ، تمضى المستشرقة الإيطالية «إيزابيلا كاميرادا فليتّو» . . فالحركات الأصولية ، بالمعنى الغربى ، هى حركات فاشية رجعية تستخدم الدين درعا وشعارا للتأثير فى الناس . . فتقول : «لا أرى ضرورة موضوعية أو فلسفية للربط بين الدين والظاهرة الأصولية ، التى هى نتاج منطق سياسى . فأنا أفضل ، فى هذه الحالة ، الحديث عن حركات سياسية ذات طابع رجعى أو حتى فاشى فى بعض الأحيان ، تستخدم الدين درعا وشعارا للتأثير على ذهنية الناس . وهذه الحركات ليست محصورة فى العالم الإسلامى فحسب ، بل هى موجودة فى الغرب أيضا . .»

أما المستشرق الألماني «أودو شتا ينباخ» ، فيرى أنها حركات «إسلاموية» - وليست أصولية - لأنها حركات سياسية ، تسعى للاستيلاء على السلطة كى تطبق مبادئ الدين . . «إنها حركات سياسية . . هدفها الاستيلاء على السلطة ، لتطبيق مبادئ الدين . . فالدين يتحول ، مع الأصوليين ، إلى نوع من الأيديولوجيا . . لذا ترانى أقترح ، عوض «الأصولية» ، مصطلحا آخر هو «الإسلاموية» . .» ! . .

وإذا كان المستشرق الفرنسى الشهير «مكسيم رودنسون» ، قد استخدم المصطلح - «الأصولية» . . ، فلقد دعا إلى تمييز الأصولية الإسلامية عن الأصوليات الدينية الأخرى ، وذلك لتميز الإسلام عن الديانات الأخرى ، بأنه دين ودولة ، فله أصول فى الدولة والسياسة . . «إن الأصولية الإسلامية متميزة عن الأصوليات الأخرى- وخاصة المسيحية - بسبب تميز الإسلام ، ، فليس فى المسيحية دولة . . أما الإسلام فالأمر فيه مختلف . . كانت لديه فى «المدينة» سلطات سياسية كاملة وسلطات روحية ، وكان يرد على كل أنواع الأسئلة التى تطرح ، ويقدم حلولا للمشاكل من كل نوع . . وحتى عندما اختلف الوضع ، ظل نموذج «المدينة» موجودا على الدوام ، وفى كل الظروف التى ساءت فيها الأوضاع ، كان التفسير الذى يقدم هو أن ما أصابنا سببه ابتعادنا عن الأصول . .» .

ونفس الرأى - الذى يميز بين الإسلام والديانات الأخرى - يراه المستشرق الهولندى «يان بروخمان» ، الذى يقول : «من الناحية النظرية كل المسلمين أصوليون ، كما أن الإسلام هو دين ودولة ، أما من الناحية العملية ، فالأمر ليس كذلك . وإذا أخذنا مصر كمثال ، نرى أنها دولة إسلامية إداريا ، ولكنها ليست ثيوقراطية

على الطراز المألوف ، بل دولة مدنية . وإذا أردنا رصد العلاقة بين الدين والسياسة فى العالم الإسلامى ، نجد أن الإسلام كدين مرتبط بشكل لافكاك منه بالسياسة . والسبب يرجع إلى التاريخ الإسلامى ، ونشأة هذا الدين ، فهو بدأ كدولة ثم انتشر . .»

فنحن أمام تميز مصدره الإسلام ذاته ، وإذا كانت الأصولية بالمعنى الغربى رفضا للدولة المدنية ، ودعوة إلى دولة ثيوقراطية ، فإن الدولة الإسلامية هى دولة مدنية مرجعيتها دين الإسلام! . .

أما المستشرق الفرنسى «دومينيك شوفالييه» ، فهو يضيف إلى نفى الشبه بين الأصولية الإسلامية والأصولية المسيحية — التى يراها متميزة بالتطرف! . . يضيف وجهة نظر تقول : إن الظاهرة الإسلامية هى حركة إحياء وتجديد دينى ، تستهدف التحرير — فى الأخلاق والسياسة معا — . . وهى ليست بنت السنوات الأخيرة ، فالعودة إلى الأصول والينابيع قد عرفها العرب والمسلمون منذ تيار الإحياء الدينى الذى قاده محمد عبده ورشيد رضا . . «فالأصولية الإسلامية لا تشبه الأصولية المسيحية ، والأخيرة تميزت بالتطرف . والفكر الإسلامى الأصولى يقدم نفسه بوصفه عودة إلى الأصول ، وهذه الظاهرة ليست جديدة . إن الفكر العربى والإسلامى ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، يستند إلى مبدأ الرجوع إلى الينابيع ، وبعض مفكرى الأصوليين والحركات الإسلامية يرجع اليوم إلى من سبقه فى هذا المجال ، أعنى بذلك محمد عبده ، ورشيد رضا ، أو آخرين . فالحركة الأصولية الإسلامية مختلفة تماما عن الأصولية الكاثوليكية بزعامة المونسنيور لوفيفر ، ولا مجال للمقارنة بين الحركتين ، وإذا كان لابد من مقارنة ما ، فإن هذه المقارنة تصلح مع حركات التحرير الدينية التى ظهرت فى أمريكا اللاتينية . . لقد

نمت الحركات الإسلامية كحركات أخلاقية وسياسية فى آن ، وهى تلعب دورا على المسرح السياسى» . .

فهى إذن حركات إحياء دينى ، والسياسة بعد من أبعادها . .

ومع هذا التحليل يقف المستشرق الإيطالى «سلفاتورى بونو» ، الذى يرى فى الأصولية الإسلامية دعوة إلى العودة لجوهر الدين والأصول والجذور ، واعتماد المبادئ الأساسية للإيمان ، ووضع كل ذلك فى ممارسة إنسانية جادة . . أما «التطرف والعنف والإرهاب» ، فإنها «الصورة» التى يصنعها الإعلام ، ويقدمها على أنها الأصولية الإسلامية ! . . «إن أى معرفة موضوعية ، وأبسط نظرة إيجابية إلى الموضوع ، تقتضى رفض ما سعت أجهزة الإعلام إلى ترسيخه فى أذهان الناس ، من ربط بين الأصولية الإسلامية ومعانى التطرف والعنف ، وحتى الإرهاب . فالأصولية جوهرها الدين ، وأساسها العودة إلى الأصول والجذور ، واعتماد المبادئ الأساسية للإيمان ، وذلك لتأكيد هذه المبادئ وممارستها بجد وصراحة . ويصح هذا أيضا على الديانات السماوية الأخرى التى شهدت عبر تاريخها اتجاهات وحركات أصولية» .

وهو نفس ما يقوله المستشرق الروسى «الكسندر سميرنوف» : «لا يجوز الخلط بين الأصولية الإسلامية والتعصب أو التطرف ، لأن الأصولية تعبر عن مفهوم أوسع»

وإذا كانت الأصولية – برأى المستشرق الأمريكى «جون فول» – هى محاولات تغيير اجتماعى ينسجم مع العقيدة والإيمان والتقاليد العريقة . . فإنها ليست كلها رجعية ومحافظة ، ولا هى دائما عنيفة وراديكالية . . ففيها ظواهر عديدة ، تتعدد بتعدد المناهج والتجارب ، فى الواقع المتغير ، محليا وعالميا . . «فالأصولية ، فى العالم الراهن ،

ليست ظاهرة واحدة ، بل تجتمع تحت تلك التسمية مجموعة من التجارب و «الظواهر» التى تعكس مناهج عدة فى مقاربة الطبيعة المتغيرة للمجتمعات المحلية والعالمية . . ولا يجوز اختصار الأصوليات إلى نزعات محافظة تبغى إيقاف التطور ، كما أنها ليست فقط مساعى رجعية ، القصد منها هو إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ، إلى ظروف اجتماعية - سياسية منقرضة . بل إنها محاولات تهدف إلى تغيير المجتمع ، بشكل ينسجم مع تصورات معينة ، وتقوم هذه التصورات على تقاليد عريقة ، وعلى المكانة التى تحتلها العقيدة والإيمان فى مجتمع ما . وقد تكون هذه الجهود ، الساعية إلى التغيير ، راديكالية فى بعض وجوهها ، تميل إلى العنف ، وربما كانت أحيانا أخرى برامج هادئة لتحول اجتماعى سلمى . . إنها تختلف من حيث الوسائل التى تلجأ إليها للتغلب على الظروف المكرسة : الهجرة ، أو الإصلاح والتجديد . .» .

فالأصولية - فى هذا الرأى - : حركة تغيير اجتماعى ، مرجعيتها الدين والإيمان الدينى السائد فى المجتمع . . فهى إصلاح وتجديد ، تختلف وسائله باختلاف التحديات التى تواجهها .

أما المستشرق الإيطالى الشهير «فرانشيسكو غابرييلى» ، فإنه يفضل «الأصولية» على «القومية» . .

فالأصولية الإسلامية تدعو إلى «الكونية الإسلامية» ، فهى أكثر إنسانية وأوسع أفقا من القومية ، التى تقف اهتماماتها عند شعب واحد بعينه . . والخيار الدينى - عنده - أفضل من الخيار القومى ذى الطابع الغربى . . وإذا كنا نرفض من الأصولية «العنف» ، فإن القومية ليست أقل عنفا من الحركات الأصولية . . «إن «النظرية» الأصولية . . تنطوى ، بشكل من الأشكال ، على بعض الإيجابية ،

قياسا إلى الحركات القومية البحتة التى تتميز بها بعض الدول الغربية . «الأصولية» تنادى إلى «الكونية الإسلامية» ، وهى تعبير عن الرغبة فى لم شمل كل الشعوب ، لاشمل شعب واحد بذاته . من جانب آخر ، ليس بإمكاننا أن نغض الطرف عن أحد المظاهر التى تمتاز بها الحركة الأصولية ، أى «العنف» الذى يبرز فى حالات كثيرة . فهذا المظهر يحول الحركات نفسها إلى سبب وحافز للقلق . لكن الرغبة التى يعلن عنها بعض الحركات الأصولية فى تطبيق مبادئ الدين ، بغض النظر عن الاختلافات والتباينات القومية والاجتماعية ، أمر يمثل خيارا إيجابيا ، وأنا - (والكلام لغابرييلى) - أفضله فى بعض الأحيان ، على خيارات ليست أقل عنفا من الحركات الأصولية نفسها» .

ومن إيطاليا - أيضا - يأتى رأى المستشرق «كلاوديو لورياكونو» ، الذى يرفض فى الأصولية التعصب ورفض الآخر . . ويتحدث عن إيجابياتها - وهى عنده أكثر من السلبيات - وذلك من مثل الدعوة إلى العدل والحرية والأصالة فى الهوية الثقافية والروحية . . فيقول : « ظاهرة الأصولية فيها إيجابيات كثيرة . . منها التعطش إلى العدالة والحرية ، ومعاداة أشكال الديكتاتورية والسلطوية ، والسعى إلى استعادة الأشكال التقليدية التى تأقلمت مع أصعب الظروف ، وصمدت مع مرور الزمن ، فى كثير من البلاد العربية والإسلامية . وما يلفت النظر أيضا ، ويثير الإعجاب بين تجليات الأصولية التى نتفق معها : نزعة المحافظة على الهوية الثقافية والروحية الخاصة ، والرغبة فى تحقيق ذلك ضمن إطار اجتماعى أقل ظلما وعسفا . . أما الملامح السلبية التى تثير الاستنكار ،

فتتلخص فى حالة التعصب ، ورفض من يمتلك آراء ثقافية وقيما فكرية مغايرة ومختلفة» . .

وعلى حين يتفق المستشرق الألمانى «ستيفان فيلد» مع الذين يرفضون التسوية بين الإسلام والأصولية . . فإنه يدعو إلى عدم اختصاص الأصولية بالمسلمين وبالعالم العربى ، ففى الغرب أصولية أكثر عنفا «فالأصولية ليست ظاهرة إسلامية فقط ، إنها أيضا ظاهرة مسيحية ويهودية . . وهى ليست حكرا على منطقة محددة . . وإذا ما كانت الأصولية فى العالم العربى والإسلامى ترفض العنف فى الخطاب العلنى وتمارسه فى الخفاء ، فإن الأصولية الجديدة فى ألمانيا – التى تحرق الأتراك أحياء فى بيوتهم – تقر بالعنف فى القول وفى الفعل . وعلينا أن نتحاشى كليا الربط بين الدين الإسلامى وبين أفراد وزعماء ، مثل الخمينى أو غيره ، ذلك أن الإسلام أكثر شمولية من أن نحصره فى أى شخص أو أى مفكر . ثم إن التراث الإسلامى متعدد ومتنوع ، فيه المعرى وابن رشد وابن خلدون وابن تيمية وابن عربى والجاحظ وغيرهم . . لذا يتحتم علينا أن نخرج الإسلام من الدوائر الضيقة التى يحصره فيها البعض . .» .

أما المستشرق الهولندى «يوهانس يانسن» فإنه يرى فى الأصولية دعوة لتسطيح الدين واختزال روحانيته الواسعة الشاملة ، وتحويله إلى مجرد أيديولوجيا تتطلع إلى إجراء تغييرات فى نظام الحكم . . وهو يراها كذلك فى كل الديانات . . «فالظاهرة الأصولية – فى كل الديانات – هى دعوة لتسطيح الدين وتقليصه من تقاليد روحية واسعة شاملة إلى أيديولوجيا محددة ، تتطلع إلى إجراء تغييرات فى نظام الحكم» . .

وتشذ معه – عن ما يشبه الإجماع من المستشرقين الذين شاركوا في «الملف» – فتسوى بين الأصولية العربية والأصوليات الأخرى – المستشرقة الإيطالية «أداليندا غاسبارينى» ، التى تقول : «ليس هناك اختلاف جوهرى بين الأصوليات العربية والأصوليات التى ظهرت وتظهر فى أوربا أو فى أمريكا ، فكل هذه الظواهر ردود فعل تتمسك بزمن غابر ، متخلف ، قياسا إلى الواقع المعاش» . .

على حين تراوحت آراء كل الذين عرضوا رأيهم فى مصطلح «الأصولية» ، بين رفض إطلاقه على الظاهرة الإسلامية . . أو قبول إطلاقه مع التأكيد على تميز الأصولية الإسلامية عن غيرها . . وذلك لما رأوا فيها من دعوة إلى الإحياء الدينى هى أوسع من الإسلام السياسى ومجرد الأيديولوجيا . . ولما لحوا فى برامجها من دعوة إلى التغيير ، ومحاولة لتحرير الذات العربية والإسلامية من قهر النموذج الغربى الذى سعى ويسعى لإلغاء ثقافة المسلمين وتاريخهم . . ولما قالوه عن تميز مرجعيتها – الإسلام – عن المرجعيات الدينية الأخرى ، بما له من علاقة بالدولة والسياسة ، ومن ثم قيامه بدور النموذج لكل حركات الإحياء والتجديد الإسلامية على مر تاريخ المسلمين . .

تلك هى وقفة الاستشراق الغربى المعاصر أمام مصطلح «الأصولية» ، فى علاقته بالحركات الإسلامية . . وهى درس فى «الفكر الغربى» نجد أنفسنا مدعوين إلى أن نتعلم منه الكثير؟! .

٢

أسباب صعود المد الإسلامى

كانت القضية الرئيسية الثانية ، فى «ملف» (الوسط) - الذى استطلعت فيه آراء علماء الاستشراق فى الظاهرة الإسلامية - «الأصولية» - هى : الأسباب التى أثمرت وأبرزت هذه الظاهرة ، على نحو غير مسبوق فى التاريخ العربى والإسلامى الحديث ؟؟ .

ولقد طوف كثير من المستشرقين حول هذه القضية فجاءت إجاباتهم - مجتمعة - لتحيط بكل الأسباب الذاتية والموضوعية . . الداخلية والخارجية . . الحضارية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسكانية . . إلخ . . إلخ . . بحيث لم تغادر إجاباتهم سببا من الأسباب - الرئيسية أو الثانوية - التى أفرزت وأبرزت المد الإسلامى على هذا النحو المثير ! . .

ولقد كان هناك ما يشبه الإجماع بين المستشرقين على أن العالم العربى والإسلامى يعيش أزمة عميقة ، حضارية وثقافية وحياتية ، فتحت الطريق أمام المد الإسلامى ، وساعدت على تعاظمه ، باعتباره «البديل الإسلامى» ، المناسب لذاتية الأمة وهويتها ، الرافض لتقليد النموذج الحضارى الغربى فى التحديث . . وذلك ، بعد فشل النموذج الغربى العلمانى - بشقيه : الليبرالى الرأسمالى . . والشمولى الاشتراكى - فى تحقيق مقومات النهوض للعرب والمسلمين فى أى من ميادين النهوض . . وفشل نظم

الحكم ، التى حكمت فى حقبة ما بعد الاستقلال ، فى حل الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وذلك لتقليدها للنموذج الغربى ، وغرقها فى الفساد والاستبداد . . وكرد إسلامى على الإذلال الاستعمارى للقوميات الإسلامية ، الذى حاول تجريد هذه القوميات من ثقافتها وتاريخها . .

نعم . . كان هناك ما يشبه الإجماع على هذه المعالم للأزمة الحضارية التى يعيشها العرب والمسلمون ، والتى أفرزت وأبرزت هذا «البديل الإسلامى» ، الذى تعلقت به الجماهير عندما بشرتها به الحركات الإسلامية المعاصرة . .

فالمستشرق الأمريكى «جون إيسبوسيتو» يرى هذه الظاهرة طبيعية تماما . . ففى سياق الإحياء الدينى العالمى ، والشامل لمجتمعات وديانات عديدة ، يجب أن نفهم الصحوة الإسلامية ، التى لا ترفض «التحديث» بإطلاق ، وإنما ترفض «التغريب» والتبعية للغرب ، وتقدم بديلا دينيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا فى الميادين التى أخفقت فيها الحركة العلمانية ، وبديلا لفساد الطبقة الحاكمة . . ويقول : «إن الصحوة الإسلامية نابعة من الأزمة السياسية والاجتماعية والدينية التى يشهدها العالم الإسلامى . . وهذه الأزمة تشهد قضايا دينية وثقافية . . وأخرى تتعلق بالهوية الوطنية ، والشرعية السياسية ، والفشل الاقتصادى ، وتأثير التبدل السريع ، إضافة إلى مسائل فساد الطبقة الحاكمة ، ووضع حقوق الإنسان . ويخطئ من يعتبر «الأصولية الإسلامية» مجرد تعبير عن رفض التحديث ، فهذه نظرة تفتقر إلى الدقة ، ذلك أن الأصولية لا ترفض غالبا إلا بعض جوانب الحداثة . فهى ، فى وجه من وجوهها ، رد فعل على إخفاق الحركة العلمانية ، وعلى إسراف

الحكومات فى الاتكال على الغرب أو فى سياساتها القائمة على «التغريب» . وفى هذا السياق لابد من أن نلاحظ بروز طريق ثالثة ، أو رؤية بديلة ، تتمثل فى أولئك الذين لم يمنعهم تعليمهم الحديث (والغربى) من اختيار التوجه الإسلامى . ومن الضرورى أن نضع الصحوة الإسلامية ، أو الأصولية الدينية ، فى سياقها العالمى ، ففى مناطق وديانات عدة يلاحظ المرء حضورا جديدا متعاظما للدين فى الحياة الخاصة والعامة ، كما أن الصحوة الإسلامية ظاهرة ذات وجوه مختلفة ومتعددة . .» .

والمستشرقة الإيطالية «دانييلا آمالدى» ترى فى مقدمة أسباب تعاظم المد الإسلامى : عجز الأيديولوجيات الغربية ، والحلول الاشتراكية والرأسمالية المستوردة من البلاد الاستعمارية ، عن حل الأزمات ، وعن الإجابة على المشاكل فى العالم الإسلامى ، فلم يبق سوى «المسجد» نقطة وحيدة للضوء ، ومكانا للقاء ، قادرا على إحياء الآمال كى تنبض من جديد فى قلب الثقافة العربية والإسلامية «لقد عجزت الأيديولوجيات الغربية عن توفير إجابات لمشاكل العالم الإسلامى ، ولم تتمكن المذاهب الاشتراكية والرأسمالية من توفير حلول لأزمات الشعوب الإسلامية ، تماما كما عجزت عن توفير الحلول للشعوب الأخرى . وولدت هذه الأفكار ردود فعل سلبية جدا ، لأنها بالإضافة إلى عجزها ، كانت مستوردة من بلاد استعمارية ، قديمة وجديدة . فى الوقت ذاته لم تتمكن القوى السياسية المحلية ، فى العديد من البلدان الإسلامية ، من العثور على مخارج مناسبة للأزمات التى تعانى منها بلادها ، ولأزمات المنطقة . وأعتقد أن «المسجد» أصبح ، فى ظل وضع كهذا ، نقطة الضوء واللقاء الوحيدة القادرة ، فى أضعف

الاحتمالات ، على حل الإشكالات الوجودية ، وإحياء الآمال كى تنبض من جديد فى قلب الثقافة العربية والإسلامية . .» .

وتتبنى المستشرقة الألمانية «جودرون كرامر» وجهة نظر مماثلة ، فترى فى الحركات الإسلامية البديل - المؤمن بعلاقة الدين بالدولة - للفشل السياسى والاقتصادى والثقافى الذى وقعت فيه نظم ما بعد الاستقلال - الليبرالية منها والاشتراكية - تلك التى لم تحقق شيئا من الليبرالية ، وتحولت الاشتراكية على يديها إلى تخريب للمؤسسات وحكم بالحديد والنار ، وعبادة أشخاص الحكام بشكل لايطاق . . «إن المسألة الأصولية تحيلنا بالدرجة الأولى إلى العلاقة بين الدين والدولة . فبعض الأنظمة العربية فشلت فى بناء الدولة الحديثة ، دولة القانون والمؤسسات . والأنظمة التى ادعت الليبرالية لم تمارس ولو عنصرا واحدا من عناصر الليبرالية كما هو متعارف عليها . أما تلك التى ادعت الاشتراكية ، فقامت بتخريب المؤسسات ، وحكمت شعوبها بالحديد والنار ، وفيها مورست عبادة الشخص بشكل لايطاق . ولم يكن هذا الفشل سياسيا فحسب ، بل كان اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا . . ومن الطبيعى أن يبحث الناس عن حل للأزمات المتتالية ، فإذا بالأصوليين يرتأون أن الحل الوحيد هو تطبيق الإسلام» .

أما المستشرقة الإيطالية « آداليندا غاسبارين» ، فإنها توجز أسباب هذا المد الإسلامى فى : عمى السياسة الاستعمارية وعجز العلمانية عن علاج مشكلات الناس وتخفيف عذاباتهم ، والخواء الثقافى . . فهذه الأسباب قد فتحت أمام الأصولية طريق النمو والتطور ، لتستجيب لحاجات الناس ، باحتواء وامتصاص

عذاباتهم . «فالحركات الأصولية تنمو عادة فى التربة التى غابت عنها الثقافة . وإذا ما أمعنا النظر فى الواقع العربى ، نجد خواء فادحا فى بعض المجالات ، هو نتيجة عمى السياسة الاستعمارية الغربية . ويتعمق هذا العمى السياسى عندما نتصور بأن الهاوية بعيدة عنا . كما أن الأصولية تستجيب لحاجات الناس باحتواء وامتصاص العذابات ، وهى قدرة عجزت الثقافة العلمانية عن امتلاكها والاستجابة إليها» .

ويعلل «جاك بيرك» تعاظم هذه الظاهرة بالتغير الذى حدث فى موازين النماذج الحضارية ، ففشل النموذج الغربى هو الذى استدعى البديل الإسلامى «لأن الانتساب إلى مدرسة الغرب لم يعط نتائج جيدة ، ولأن تقليد الآخر ليس أمرا حسنا فى حد ذاته ، إذن يجب البحث عن الحلول فى إطار ذاتى . . وليس تطبيق حلول الآخر على الذات . . لقد قلدت المجتمعات العربية والإسلامية ليبرالية الغرب ، وسقطت فى الفساد . وقلدت الاشتراكية ، ووقعت فى البيروقراطية والطغيان . وفى مواجهة ذلك يمكن فهم عودة هذه المجتمعات إلى نفسها ، وبالتالى العودة فى الظرف الحالى إلى ماهو أقرب إليها ، أى إلى الدين» .

وينبه «مكسيم رودنسون» على أن العالم العربى ، منذ فجر محاولات نهضته الحديثة ، كانت تتنازعه دعوتان إلى مشروعين للنهوض . . مشروع علمانى غربى ، ومشروع إسلامى . . فلما أصاب الإحباط المشروع الغربى ، وتراجعت قواه ، فتح الطريق أمام البديل الإسلامى ، فتعاظمت قواه . . «ففى العالم العربى ، كما فى أماكن أخرى ، نشأ إحباط تجاه الأيديولوجيات السياسية والاجتماعية الكبرى التى انتشرت فى نهاية القرن التاسع عشر

ومطلع القرن العشرين . . الليبرالية البرلمانية . . والاشتراكية أو الشيوعية . . وفقدت صدقيتها . . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، كانت مجموعات فى العالم الإسلامى تقول دائما : إن حل مشكلات العصر يتم عن طريق الإسلام . ويطالبون بالعودة إلى صدر الإسلام . . وكان هناك على الدوام فى كل العصور من يطالب بالعودة إلى هذه الحقبة . . وعندما توافرت الظروف المناسبة ، برزت المجموعات التى تنادى بهذا النوع من الحلول ، مستفيدة من الإحباط الذى أصاب الأيديولوجيات السياسية والاجتماعية الغربية ، آملة بتسلم السلطة عندما تحين الفرصة . .»

ويشير المستشرق الفرنسى «دومينيك شوفالييه» - فى رصد أسباب تعاظم المد الإسلامى - إضافة إلى أزمة الأيديولوجيات الغربية - إلى المواجهة الإسلامية مع الحضارة المادية ، وإلى الدور المتميز للمسلمين حضاريا ، وإلى البطالة والفساد فى الواقع العربى ، وإلى الصراع العربى - الإسرائيلى . . فهذه الظاهرة الإسلامية «متصلة بالتحولات العالمية التى طرحت سؤالا على العرب والمسلمين : كيف يمكن للإسلام ، كدين أو كحضارة ، أن يتحمل مسئولياته فى العالم الحديث؟ كيف يمكن أن يتحول المسلمون إلى فريق خلاق فى العالم الحديث ، مع الاحتفاظ بشخصيتهم وهويتهم؟ . . هكذا وجد الإسلام نفسه فى مواجهة حضارة ليست مادية بحتة فقط . وفى إطار هذه المواجهة يمكن فهم جانب من أسباب الظاهرة . . هذا بالإضافة إلى البطالة والفساد ، والصراع العربى الإسرائيلى ، وأزمة الأيديولوجيات الأوربية ، القومية والاشتراكية وبخاصة الماركسية . .» .

فهى مواجهة بين خيار حضارى إيمانى ، وآخر مادى ، تراجعت

أيديولوجياته ، بعد أن صنعت للعرب والمسلمين الكثير من الأزمات ، فوجد الإسلام والمسلمون الطريق مفتوحا ليتحمل الإسلام ، كدين وحضارة ، مسئولياته النهضوية ، التى تجعل من العرب والمسلمين فريقا خلاقا فى العالم الحديث! . .

أما المستشرق الإنجليزى «هومى بابا» ، فيرى الظاهرة الإسلامية جزءا من ظاهرة عالمية ، ترفض العلمانية والمادية والتحديث الأوربى - بشقيه الليبرالى والشيوعى - الذى حرم شعوب العالم الثالث من تاريخها وثقافتها . . «فالقضية الأساسية هى التحول الذى تشهده دول وثقافات عدة عن الأيديولوجيات العلمانية إلى نماذج ومثل أصولية دينية . . فالحركات الأصولية تتفق فى خيبة الأمل من السياسة الاجتماعية والثقافية الليبرالية الديمقراطية ومن العقلانية الاجتماعية التى نهضت عليها هذه السياسة . . ومن التحديث الذى يمثل حركة معاكسة للأصولية . . إن وعد التحديثية ، سواء أتى من صندوق النقد الدولى أو البنك الدولى ، كان وسيلة لحرمان شعوب العالم الثالث من تاريخها المستقل . وفى هذا السياق تظهر حركات معارضة لأفكار وقيم علمانية تحديثية أوربية التمركز ، وهذه المعارضة أصولية دينية لا تقوم على تصورات مادية أو مستوحاة من الشيوعية التى تواطأت مع المشروع التحديثى إلى درجة ما . .» .

وعند المستشرق الإنجليزى «فيردها ليداى» ، نجد المد الإسلامى : الرد السياسى الاجتماعى على المشكلات التى صنعها التحديث الغربى ، الذى فقد مصداقيته . . والبديل للنظم «اليمينية واليسارية» سيئة السمعة . . «فهذه الحركات ذات رد سياسى اجتماعى على مشاكل حقيقية تعيشها مجتمعاتها : ظروف ازدحام

مدينى ، ودول فاسدة ، وتأثير وإهانة خارجيان ، وتغير ثقافى . فى الماضى كانت الحركات اليسارية ، أو تلك العلمانية الشعبية ، مصدر الرد على هذه المشاكل ، إلا أن سمعة اليسار لا تقل سوءا عن سمعة بعض الأنظمة اليمينية . . وهى قد اشتركت كلها فى مشروع علمانى تحديثى فقد صدقيته حاليا . .» .

ويفصل المستشرق الإنجليزى «روبن أوستل» ، أسباب هذه الظاهرة الإسلامية فى نقاط موجزة ، فيراها ثمرة لغيبة العدالة الاجتماعية . . وأزمة الهوية . . وحدة تأثير الأزمة على الشباب . . وسقوط الحلول ذات النماذج الغربية . . والثقة فى الحل الإسلامى لهذه الأزمات . . وعنده أنه «يمكن تلخيص أسباب بروز هذه الظاهرة بما يأتى :

(ا) الرغبة فى وضع معيار للعدالة الاجتماعية ، إذ هناك فجوات آخذة بالاتساع بين الغنى والفقير .

(ب) أزمة الهوية : فلقد تمخضت المرحلة الكولونيالية وماتلاها عن أزمة هوية فى معظم أجزاء العالم العربى ، بعد ما صيغت هيكلية القوانين والأنظمة وفق نماذج غربية .

(جـ) حدة تأثير الشرور الاجتماعية الناجمة عن الفقر ، وضعف الأمل بالعثور على عمل بالنسبة للشباب .

وفى ظل الغياب الواضح لأى حل آخر يشعر كثير من الشباب بأن الإسلام قد يكون وسيلة التحديث والحفاظ على الهوية وتحقيق مستويات أعلى من العدالة الاقتصادية والاجتماعية . .» .

وعند المستشرق الإنجليزى «ديريك هوبوود» ، نجد هذه الظاهرة الإسلامية : البديل الإسلامى المرشح لبناء حياة ومجتمع جديدين ، ولحل مشكلات التنمية الاقتصادية ، ولتأكيد الشخصية

والهوية التى تتعرض «للأمركة» الطاغية . . والقادر على إقامة دولة إسلامية مستقلة عن تدخل الأجانب وتأثيرهم ، وذلك بعد أن فشلت الأيديولوجيات الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية فى حل أزمات العالم الإسلامى . . فهى السبيل إلى «إعادة تأكيد القيم الإسلامية فى العالم العربى . هى رد فعل على فشل الأيديولوجيات الأخرى فى حل المشاكل الحاضرة . والاعتقاد بأن الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية قد أخفقت يؤدى إلى طرح الإسلام بديلا يقدم الحلول المرجوة . وهو أيضا وسيلة لإعادة تأكيد الشخصية والهوية الأساسية وحمايتها من «الأمركة» الطاغية التى يتعرض لها نمط الحياة . والإسلام ، أيضا ، قاعدة بناء مجتمع وحياة جديدين توفران حلولا لمشاكل التنمية الاقتصادية كلها ، وهذا يفضى إلى الإيمان بأن إقامة المجتمع الإسلامى المثالى ستتيح معالجة كل شىء . .» .

ولا يختلف الأمر ، فى تشخيص أسباب المد الإسلامى ، عند المستشرق الروسى «آرتور سعادييف» . . فهو يرى هذه الظاهرة : رد الفعل الإسلامى ، الذى يقدم الشريعة بديلا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وحقوقيا وأخلاقيا لبناء الأمل الذى خاب فى التحديث الغربى - الليبرالى والقومى والاشتراكى - ذلك الذى قاد إلى أزمات فى الاقتصاد والهوية . . «فالحركات الأصولية هى حركات احتجاج نتجت من خيبة الأمل من نتائج التحديث التى حققتها بعض الأنظمة العربية . ففى المجال الاقتصادى ، قاد هذا التحديث إلى نمو التضخم والبطالة وأزمة السكن . وفى المجال الروحى ، إلى أزمة الهوية . وبما أن التحديث جرى تحت شعارات الليبرالية والقومية والاشتراكية - وهى شعارات اعتبرت «مستوردة» من

الغرب - فالتحديث أيضا كان يعنى التطبع بطابع الغرب . ولهذا أصبحت الصفة الجامعة للحركات الأصولية : العداوة لما هو غربى ، واتخذت شكل الدعوة إلى إقامة أنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية وحقوقية وأخلاقية أساسها الشريعة الإسلامية» .

ومثل ذلك نجده عند المستشرق الأمريكى «جون فول» . . فهذه الحركات «هى أسلوب للرد على فشل برامج سياسية حديثة ، وعلى أساليب حياة وقناعات تندرج فى هذا السياق» .

وهى عند المستشرق الإيطالى «سلفاتورى بونو» : ثمرة «خيبة الأمل ، بسبب عدم انطلاق التطور الاقتصادى والاجتماعى ، بعد انتهاء المرحلة الاستعمارية ، لذا اعتبرت العودة إلى تطبيق المبادئ الإسلامية وسيلة للانعتاق الاقتصادى والاجتماعى . وأحدث هذا التفسير الجديد تغييرا فى الحركات الدينية ، محولا إياها إلى تنظيمات ذات برنامج سياسى» .

أما المستشرق الروسى «فيتالى ناوومكين» فيرى هذه الظاهرة الإسلامية : الطريق الإسلامى للأصالة القومية ، ولحماية المصالح الوطنية ، بعد فشل التحديث فى حل المشكلات الاجتماعية ، وتزايد حدة الفوارق الاجتماعية ، والتبعية الاقتصادية للغرب . . إنها «تعود ، قبل كل شىء ، إلى أسباب اجتماعية ، وفى درجة أقل إلى أسباب سياسية . . إنها تنشط أكثر ما تنشط حيث تجرى محاولات لتحديث أعمق ، لم يسفر عن نتائج . . فيتسلح النشطون الإسلاميون بأفكار الأصالة القومية ، وحماية المصالح الوطنية . . ومادامت هناك هوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء فى إطار البلد الواحد ، وفى مستويات التطور بين مختلف البلدان . . وما دامت الرساميل العربية تجلب الازدهار للغرب ، وتلعب دورا فى تطوره من

دون اهتمام بتنمية مجتمعاتها ، فستبقى الأسباب المولدة للتطرف الذى يجد فى شعارات الإسلام السياسى ملجأ له . .» .

وعند المستشرق الإسبانى «بيدرو مارتينيث مونتانيث» : هى «نتيجة حتمية لأخطاء كثيرة تتراكم منذ عقود . وهى الخيار الطبيعى أمام الإحباطات والإخفاقات السابقة . فالإسلام هو المسوغ الهيكلى والجوهرى لجميع الشعوب والدول والمجتمعات العربية . .» .

وفى رأى المستشرق الهولندى «رودولف بيترز» ، فإن هذه الحركات الإسلامية تمثل الرفض الجماهيرى لخيار المؤسسة الاستعمارية الغربية - فى الديمقراطية والليبرالية والاشتراكية - الذى طرحته على يد أقليات منتقاة - وهو خيار مقطوع الصلة بجذور المجتمع وأصوله العربية والإسلامية . . «فجذور المشكلة تمتد إلى الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، عندما طرحت المؤسسة الاستعماوية الغربية خيارها الخاص فى العالم العربى على يد أقليات منتقاة ، وليس عبر الغالبية الواسعة من السكان ، متبنية أهدافا مثل الديمقراطية والليبرالية والاشتراكية ، وهى قوالب لم تكن لها جذور أو أصول فى المجتمع الإسلامى والعربى» .

ولا يختلف الأمر عند المستشرق الروسى «الكسندر سميرنوف» ، الذى يراها : الرد على التشويه الغربى العنيف للأصول الروحية والثقافية الإسلامية ، والمواجهة للإذلال القومى والتشويه الاقتصادى الذى مارسه الاستعمار الغربى فى العالم الإسلامى . . «فالعنف والإرهاب يقويان فى البلدان التى استعمرها الغرب بالقوة ، أو جعلت ذات طابع غربى بالقوة ، فتشوهت أصولها الروحية وثقافتها ، وفى كثير من النواحى اقتصادها أيضا . . فكان نمو التطرف الإسلامى كرد فعل حتمى على الإذلال القومى . .» .

وحتى ظاهرة العنف فى الحالة الإسلامية ، تراها المستشرقة الإيطالية «إيزابيلا كاميرا دافليتّو» ناشئة عن : السياسة الاستعمارية الغربية . . والامبرالية الثقافية . . والاستعمار الجديد . . وغياب الديمقراطية والحرية . . وأخطاء الزعامات العربية . . «فالظاهرة الأصولية العنيفة ، هى وليدة للمصاعب التى تجتازها بعض البلاد العربية ، وبالذات على الصعيد الاقتصادى لكن حتى هذه المصاعب الاقتصادية ليست وليدة اليوم ، وإن كان للزعامات الحالية دور فى تعميقها ، فهى وليدة السياسة الاستعمارية والامبريالية الثقافية ، والاستعمار الجديد . لذا ، ففى اعتقادى أن مسئولية الغرب فى هذا الإطار كبيرة وثقيلة . . فأخطاء الزعامات العربية ، وغياب الديمقراطية والحرية فى العديد من البلدان العربية ، من العوامل التى تساهم فى شق الطريق أمام صعود تيارات عنيفة تستفيد من غضب الناس» .

ودون خروج عن جوهر الموقف الاستشراقى – الذى عكسه «ملف» (الوسط) – فى تحديد أسباب بروز الحركات الإسلامية . . يرى المستشرق الألمانى «أودوشتا ينباخ» أنها ثمرة لتراجع شرعية النظم الحاكمة بسبب الأزمة العميقة فى ميادين الثقافة والاجتماع والاقتصاد . . وأخلاقيات الغرب المزدوجة فى التعامل مع القضايا الإسلامية ، التى أدت إلى هزيمة قيمه ، وهزيمة المثقفين الباحثين عن حلول للأزمة مؤسسة على هذه القيم الغربية . . هذه الأسباب قد أكسبت الحركات الإسلامية شرعية نسبية ، عندما وعدت الناس بحلول تخرجهم من أزمتهم العميقة . . إنها «الأزمة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية العميقة التى يتخبط فيها العالم العربى . . أعطت شرعية نسبية للحركات الإسلامية ، التى قدمت

وعودا بحلول للمشاكل المطروحة . . ويتحمل الغرب عامة ، وأوربا على وجه التحديد ، جزءا من المسئولية . فالغرب مطالب بإظهار مصداقيته أكثر من أى وقت مضى ، وهو مطالب أيضا بتجنب الأخلاقية المزدوجة إن استمرار الحرب فى البوسنة مثلا ، يعطى الفرصة للمتطرفين الإسلاميين كى يعمقوا الهوة بين شعوبهم وقيم الغرب ، ويهزموا المثقفين الساعين إلى إيجاد حلول واقعية وعقلانية للأزمات الراهنة» .

ويرى المستشرق الإسبانى «فرناندودى أغريدا» ، أن الظاهرة الإسلامية هى الرد على الأزمة الاقتصادية والسياسية . . وتدخلات القوى الكبرى فى شئون العالم العربى . . وانقطاع الحوار الثقافى بين الشرق والغرب «إنها تعود إلى أسباب عدة ، أهمها الأزمة العامة التى يعيشها العالم العربى والإسلامى ، وتكاد تشمل كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وهى تعتبر أيضا ردا على تدخلات بعض الدول الكبرى . . وانقطاع الحوار الثقافى بين الشرق والغرب . .» .

وتذكر المستشرقة الألمانية «أردموتة هيللر» ، من أسباب بروز المد الإسلامى : أزمة الثقة بين المحكومين والحكام . . وتعميق الجراح القديمة بين الشرق والغرب . . وذلك بسبب : عجز نظم مابعد الاستقلال عن تحقيق الآمال . . وتحول الحركات التى قامت لتحرير الوطن إلى أجهزة قمع للحريات ونهب للثروات . . والهزائم المتتالية فى الصراع العربى . . الإسرائيلى . . «فالاستقلال لم يحقق الآمال المنشودة . وفى أغلب البلدان العربية ، تحولت الأحزاب والحركات التى قادت النضال التحررى إلى أجهزة للقمع والإرهاب والرقابة . بالإضافة إلى هذا وقع نهب شبه منظم من قبل الطبقات الحاكمة ،

والفئات الاجتماعية الموالية لها ، لخيرات البلاد ، مما عطل حركة النمو الاقتصادى ، وأهدر الطاقات ، وتسبب فى أزمات خطيرة . . والهزائم المتتالية التى منيت بها الجيوش العربية فى الصراع العربى الإسرائيلى ، فتحت أبواب اليأس على مصراعيها ، وعمقت الجراح القديمة بين الشرق والغرب ، وخلقت حالة من انعدام الثقة بين المحكومين والحكام . . وأعتقد أن ظاهرة الأصولية ، هى نتيجة طبيعية لهذا الوضع المتأزم الذى يعيشه العالم العربى منذ ما يزيد على العشرين عاماً» .

وعلى هذا الدرب ، الذى اجتمع فيه المستشرقون وأجمعوا على أن بروز هذه الظاهرة الإسلامية إنما هو نتيجة طبيعية لأزمة حضارية وثقافية واقتصادية واجتماعية زلزلت هوية العرب والمسلمين ، وشارك فى صنعها الغرب واستعماره ، واستغلاله وايديولوجياته ، مع النظم التى حكمت العرب فى حقبة مابعد الاستقلال ، والأقلية المثقفة التى تولت التبشير بأيديولوجيات غربية مرفوضة من الجمهور . . على هذا الدرب سار المستشرق الهولندى «يان بروخمان» عندما رأى فى الظاهرة الأصولية : «محاولة الإصلاح الثالثة ، بعد فشل المحاولة القومية ، والمسار الاشتراكى . .» . . والمستشرق الأمريكى «روجر أوين» ، الذى أرجعها إلى «خيبة الأمل من جراء فشل حكومات مابعد الاستقلال فى خلق نظام سياسى واجتماعى - اقتصادى عادل وغنى وسليم» . . والمستشرقة الإسبانية «مرثيدس ديل آمو» ، التى أرجعتها إلى «الفقر والجهل . . والافتقار إلى علاقات دولية عادلة . . وإغلاق طريق الحصول على التعليم والصحة أمام العالم الثالث . . والاعتقاد بامتلاك الحقيقة دون الآخرين» . .

وبمناسبة «الاعتقاد بامتلاك الحقيقة دون الآخرين» - كسبب من أسباب هذه الظاهرة - . . هل للمرء أن يسأل أساتذة الاستشراق ، الذين نسبوا إلى «الآخرين» كل هذا الفشل . . والمسئولية عن الأزمات التى زلزلت هوية الأمة ، وشوهت تاريخها ، وأذلت كبرياءها القومى ، وحرمتها من مقومات الحياة . . هل يعتقدون أن لدى هؤلاء «الآخرين» «حقيقة» يدعون إلى الاعتراف بها ، وإلى احترامها؟! أم أن هؤلاء الآخرين هم أيضا المسئولون عن «اعتقاد الأصوليين بامتلاك الحقيقة دون الآخرين»؟! . .

على هذا النحو كان حديث المستشرقين عن أسباب بروز الظاهرة الإسلامية . . مع إضافة المستشرق الفرنسى «بيار تييه» : «انتصار الثورة الإسلامية فى إيران» إلى هذه الأسباب . . وإضافة المستشرق الهولندى «يوهان يانسن» : «الخوف من التطور التكنولوجى الزاحف الذى يحكم سيطرته على كل مرافق الحياة فى المجتمع المعاصر» . . وإن كان المدقق لحال العالم العربى والإسلامى يلاحظ أنه وإن خاف من الإغراق الثقافى الغربى ، فإنه فقير ومشوق إلى«التطور التكنولوجى الغربى» ، ولا يخاف منه زحفا ؟! . .

* * *

لقد تفاوتت مواقف المستشرقين فى الإيجاز والتفصيل لأسباب بروز الظاهرة الإسلامية . . وكذلك فى التركيز على بعض جوانب وعوامل بروز هذه الظاهرة ، تبعا لتنوع مناهج ومذاهب وتخصصات كل منهم . . لكنهم جميعا اتفقوا على أن هذه الظاهرة هى ثمرة طبيعية تماما لأزمة حضارية صنعها الغرب والنظم التى حكمت بأيديولوجياته فى مختلف ميادين حياة وفكر وثقافة العرب والمسلمين . .

لقد أدان هؤلاء المستشرقون الغربيون ما صنعه الغرب بالعرب والمسلمين ، على النحو والمستوى الذى لا يفعله كثير من «المتغربين» العرب والمسلمين . . وهذا هو الفارق بين «العلماء الأئمة» وبين «التلاميذ المقلدين» . . لقد اجتمعت كلمة هؤلاء المستشرقين على أن الأصولية الإسلامية هى التعبير عن البديل الرافض للنموذج الغربى العلمانى ، الذى فشل فى إنهاض العرب والمسلمين . . والرافض للإذلال الاستعمارى للقوميات الإسلامية . . والرافض للتغريب الذى هدد هوية الأمة وثقافتها وتاريخها . . وبغير هذا «الملف» الذى قدمته (الوسط) ما كان لنا أن نرى هذه الموضوعية التى تستحق كل الاحترام .

٣

هل الصحوة الإسلامية خطر على الغرب؟؟

كانت القضية الثالثة ، التى عرض لها المستشرقون الثلاثون - الذين استطلعت (الوسط) آراءهم فى الأصولية الإسلامية - هى قضية العلاقة بين هذه الظاهرة وبين الغرب ، وتأثيرها على وضع الجاليات العربية والمسلمة فى المهاجر الغربية؟؟ . .

ولقد تنوعت وتعددت زوايا التركيز والاهتمام فى إجابات المستشرقين على سؤال (الوسط) : «ماهو ، فى رأيك ، انعكاس هذه الظاهرة على العلاقة بالغرب ، وعلى المهاجرين العرب والمسلمين»؟

لكن الجميع تقريبا تكاملت إجاباتهم لترسم معالم الإجابة المتكاملة التى تؤكد على أن القول بتهديد إسلامى للغرب هو «خرافة» . . ومشكلة مفتعلة . . و «صورة» صنعها الغرب ضمن سعيه لصنع عدو بديل لإمبراطورية الشر الشيوعية التى سقطت . . وللإعلام الغربى والصهيونية العالمية دور بارز فى «صناعة» هذه «الصورة» ، والترويج لهذه الخرافة . . كما أن للأحزاب العنصرية الغربية - وهى أصولية غربية - دورا بارزا فى ذلك الحديث عن تهديد الجاليات الإسلامية فى الغرب للخصوصيات الحضارية للمجتمعات الغربية التى يعيشون فيها . . وهناك ، أيضا سوء فهم الغرب لحركات الإحياء والتجديد والنهوض ذات المرجعيات

الدينية ، مصدره النظرة الأحادية ، والقياس على تجربته التاريخية مع الكنيسة ، والجهل بتميز النموذج الإسلامى فى علاقة الدين بالسياسة . . ودور المدرسة الاستشراقية الاستعمارية القديمة فى «صناعة صورة» هذا الخطر الموهوم . .

قال المستشرقون ذلك كله ، وهم يفندون خرافة الخطر الإسلامى على الغرب . . ووضع كثير منهم النقاط فوق حروفها . . فأشاروا إلى أن الحقيقة إنما تكمن فى عداء الغرب للبديل الإسلامى الذى يهدد استغلاله الاستعمارى ، وإذلاله لقوميات العرب والمسلمين . . بل إن منهم من تحدث عن الأرض المشتركة بين الصحوة الإسلامية وبين صحوة دينية فى الغرب . . ففى الغرب - كما فى الشرق - مؤمنون ، تؤرقهم المادية والعلمانية والنزعة الاستهلاكية ، ويتطلعون - مع المسلمين - للإحياء الدينى؟! . .

فالمستشرق الإنجليزى «فرد هاليداى» ، يقول : «يتكلم الناس فى الغرب عن «تهديد إسلامى» . وهذا فى غالبه هزر فارغ . فالحركة الإسلامية ليست معنية أساسا بالغرب على الإطلاق ، بل بمجتمعات إسلامية» . .

وعميد الاستشراق الفرنسى «جاك بيرك» يرى أن قلق الغرب من الإسلام ليس نابعا من تهديد حقيقى يتعرض له الغرب . . وإنما هو نابع من قلقه على هيمنته الغربية التى يتحداها الإسلام . . فيقول : «الغرب ، ويالـلأسف ، يعتبر الإسلام عموما ، والإسلام العربى خصوصا ، مصدر تهديد مباشر موجه ضده . ويوجه

احتياطه الاستراتيجي نحو الجنوب ، بعدما كان موجها لوقت طويل نحو الشرق . وهنا أقول : إن القوة الوحيدة التى يبدو أنها تقاوم الهيمنة الجديدة ذات القطب الواحد ، أى الولايات المتحدة الأمريكية ، هى الإسلام وبعض الدول العربية ، ولهذا يعتبر بعضهم أن العرب والإسلام هم العدو الواجب قهره»! . .

أما المستشرقة الإيطالية «إيزابيلا كاميرا دافليتّو» فترى أننا أمام مؤامرة غربية هدفها «اختراع» عدو . . وأن المدرسة الاستشراقية الاستعمارية والإعلام الغربى ضالعان فى خلق «بعبع» إسلامى ، وذلك لخلق خط دفاعى ضد هجوم وهمى ، ليظل الغرب مترفعا ومتعاليا على ما سواه من العالم . . وفى سبيل ذلك يتم تزييف الصورة الإسلامية ، وتبعث الضغائن القديمة ، وتخلط الشعائر الدينية الإسلامية بالعنف الأصولى! . . ترى المستشرقة الإيطالية ذلك ، فتقول : «قضية الأصولية الإسلامية واجهت تضخيما مبالغا فيه من قبل أجهزة الإعلام الغربى . . فالغرب كان وما يزال بحاجة إلى «اختراع» عدو حتى يضمن لنفسه خطا دفاعيا ، ويظل مترفعا ومتعاليا على ما تبقى من العالم . . وعندما انهارت الشيوعية ، برز لدى الغرب التساؤل التالى : من سيكون عدونا المقبل؟ وإذا به يسحب من خزانة تراكم عليها غبار الزمن صورة العدو التاريخى القديم المتمثل بالعالم الإسلامى . لكن الغرب كان أيضا بحاجة إلى وسيلة لإقناع مواطنيه بصداقية هذا الاكتشاف «الجديد - القديم» ، لذا كان طبيعيا أن يحاول ترسيخ ملامح

«البعبع» من خلال تقديم الأصولية الإسلامية فى صورة العدو العنيف . واستغل لتقديم هذه الصورة كل ما يمكن أن يمت إلى العالم الإسلامى بصلة . فنحن ، وعلى الرغم من وجود مظاهر أصولية كثيرة فى الديانة المسيحية أو الديانات الأخرى فى الغرب ، لا نسمع حديثا عن «عنف هذه المظاهر الأصولية» ، فى حين نرى هذا المنطق يطبق على العالم العربى .

اطلعت أخيرا على الترجمة الإيطالية لأحد كتب المستشرق الإنكليزى العجوز بيرنارد لويس ، وهو ينتمى إلى المدرسة القديمة الغربية من المنطق الاستعمارى . نشر الكتاب فى طبعة إيطالية ، تحت عنوان (القتلة الإرهابيون الأوائل فى التاريخ) ! وعندما تنشر دار نشر مشهورة وكبيرة فى إيطاليا كتابا بهذا العنوان ، فمن الواضح أن لديها هدفا فى تزييف الحقائق . وليس هذا إلا مثالا مصغرا عما يكمن فى الغرب من استعداد لرؤية الجانب السلبى فقط من العالم العربى . .

يكفى أن ترى نشرات الأخبار ، فهى عندما تتحدث عن ظاهرة الأصولية ومظاهرها العنيفة ، تذهب لتصور الناس وهم يؤدون شعائر دينية أو يصلون فى المساجد ، ثم تربط بين هذه الصورة والحديث عن «العنف الإسلامى» ! . ترى لماذا لم تفكر محطات التلفزيون فى الحديث عن الظاهرة الأصولية فى الديانات الأخرى - وهى موجودة بالفعل - من خلال الربط بينها وبين مشهد آلاف المؤمنين الذين يؤمون ساحة القديس بطرس فى الفاتيكان كل يوم أحد

للاستماع إلى قداس الأحد الذى يحييه البابا يوحنا بولس الثانى؟ . . أو أولئك الذين يقفون أمام حائط المبكى فى القدس؟ . ثم ، من أجاز لهؤلاء الصحفيين أن يطلقوا على بشر عاديين يؤدون شعائرهم الدينية صفة «الأصولية»؟ .

كل ذلك يدفعنا إلى اكتشاف درجة الزيف فى الصحافة والإعلام الغربيين ، ومدى استعداد البعض إلى استخدام ضغائن دفينة تجاه العالم العربى والإسلامى . أعتقد أن ما يحدث فى الغرب إزاء هذه الظاهرة ، عبارة عن «خط دفاعى» ضد «هجوم» مفترض وموهوم . وتظهر النتائج بوضوح على المهاجرين العرب والمسلمين بشكل عام ، فغالبيتهم تعيش فى ظروف قاسية ، وفى حالات العزلة الاجتماعية . كما يعانى أبناء المهاجرين من مصاعب عديدة سواء فى الدراسة أو ممارسة شعائرهم الدينية ، ففى مدينة كبيرة مثل روما ، لا وجود لمسجد ، والمسجد الذى أنشئ لم يفتتح بشكل كامل حتى الآن» ؟! . .

وينفى المستشرق الفرنسى «مكسيم رودنسون» ، وجود خطر إسلامى على الغرب ، ويقول : «ربما وجب اجتماع شروط من الصعب جمعها لكى يصبح فى الإمكان الحديث عن خطر أصولى على الغرب» .

وكذلك يرى المستشرق الإيطالى الشهير «فرانشسكو غابرييلى» ، أن لا منطق لقلق غربى من ظاهرة الأصولية الإسلامية «فالغرب يشعر بالقلق إزاء ما تنطوى عليه تلك الظواهر من عنف . وهذا

القلق يدفع بالكثيرين إلى التساؤل : إذا لم يكن لدى الإسلام رغبة فى «فتوحات» جديدة كما حدث فى القرون الوسطى؟ . وهو قلق لا يمتلك طبعا أى أساس منطقى على الإطلاق» .

أما المستشرق الأمريكى «جون إيسبوسيتو» ، فيرى فى الحديث عن خطر إسلامى على الغرب وهما لا أساس له ، فهناك أرض مشتركة بين جماهير عريضة من المؤمنين - فى الشرق والغرب - مسلمين ومسيحيين ويهود - يشتركون فى القلق من النزعات المادية الاستهلاكية ومن العلمانية . . فالمقاصد المشتركة ، لا المتناقضة ، يمكن أن تجمع بين الغرب والإسلام . . «هناك فى المجتمعات الإسلامية والغربية ، أعداد كبيرة من المؤمنين (مسلمين ومسيحيين ويهود) يشتركون فى نفس القلق من تمادى العلمنة والمادية الاستهلاكية . لذا ، فبمجرد أن نقوم بالتمييز بين الإسلام والتطرف ، ونتنبه إلى ما يفرق المتطرفين القائلين باستخدام العنف عن الحركات الإسلامية الحديثة ، فإن حجج الذين يعتقدون أن الإسلام يشكل تهديدا سكانيا وحضاريا للغرب ستسقط كلها بلمح البصر» .

ويفند عدد من المستشرقين مزاعم تهديد المهاجرين المسلمين فى الغرب خصوصيات المجتمعات الغربية الحضارية . فيقول المستشرق الهولندى «يان بروخمان» : «إن اتهام المهاجرين العرب والمسلمين بالتطرف مجرد كلام فارغ ودعايات وحملات منظمة تشنها فئات ذات أهداف سياسية معروفة» .

ويدعو «جاك بيرك» الأقليات المسلمة فى الغرب إلى التكيف مع الأكثرية ، دون التخلى عن إسلامها ، إذ «عندما يكون طرف ما أقلية عليه أن يتكيف مع الأكثرية . . أن يدفع ثمن القبول فى المجتمع . . فعلى الأقليات المسلمة أن تتكيف مع المجتمعات الغربية دون التخلى عن الدين» . .

وهذا «التكيف» الذى يدعو إليه «جاك بيرك» ، يتحدث المستشرق الفرنسى «دومينيك شوفالييه» عن أنه متحقق بالفعل . . «إن المواطنين المسلمين ، بمن فيهم الأصوليون ، قبلوا الاندماج فى إطار القوانين الفرنسية . . ووجود المسلمين لايشكل خطرا ، بل مصدر غنى للمجتمع الفرنسى . . وإذا كان هناك بعض التطرف فى الفئات المهمشة ، فسببه البطالة واليأس الكبير ، وأعتقد بأن هذا اليأس هو الذى يجب حله . .» .

أما المستشرق الفرنسى «بيارتييه» ، فينفى وجود خطر من الأقليات الإسلامية فى الغرب ، إذ «يمكن للأصوليين أن يمارسوا ديانتهم فى فرنسا ، لكنهم ليسوا قادرين على تحويل دينهم إلى فعل سياسى . لذلك لا يشكلون خطرا على فرنسا . . والحديث عن هذا الخطر يصدر عن أحزاب متطرفة فى فرنسا ، ويطرحه بعض الوزراء بطريقة ديبلوماسية . . والإسلام ليس مناقضا للعلمانية . . والأديان يمكن أن تتعايش . . والعلمانية هى فعل التعايش بين الأديان . .» .

وعندما يتحدث «بيارتييه» عن الأصولية الدوغماتية ، التى تدير ظهرها للغرب ، نجده يتحدث عن خلاف الرؤية الإسلامية ، التى

ترى فى الوحى والغيب والإيمان «حقائق» ، مع الوضعية الغربية التى تضع «الحقائق» بعيداً عن منطقة «الإيمان» الذى تراه لا يرقى إلى مرتبة «الحقيقة» . . فيقول : «ولعل أخطر ما فى الحركة الأصولية هو دوغماتيتها ، وهى دوغماتية غير مبررة . لماذا؟ لأنها لا تقوم على التمييز بين حقيقة الإيمان والحقيقة العلمية الثقافية . ففى رأيى أن هناك حقيقة تنتمى إلى مجال المعرفة ، وحقيقة تنتمى إلى مجال الاعتقاد ، ولا يمكن الخلط بين الاثنين . إن الأصولية ترفض مبدأ الحقيقتين ، ولذا تدير ظهرها للغرب» . .

لكن . . هل تضيق صدور ليبرالية وديمقراطية الغرب - التى وسعت التيارات الفكرية والفلسفية المتناقضة - بالرؤية الإسلامية التى تقول بالحقيقة الواحدة؟ . . فلا يكون هناك داع ولا مبرر لأن يدير بعض المهاجرين المسلمين إلى الغرب ظهورهم لمجتمعاته؟! . .

ويلفت «جاك بيرك» النظر إلى «السياسة الغربية» التى تستفز مشاعر المسلمين بتصرفات «حمقاء» ، من مثل الاحتفاء بـ «سلمان رشدى» : «إنه لفعل أحمق أن يدعو وزير فرنسى سلمان رشدى ، الذى شتم نبى الإسلام . . إن الذين دعوا رشدى كانوا يودون تسجيل موقف . هذه مبادرة حمقاء من وجهة نظر سياسية ، وتنم عن موقف غير مسئول» .

أما المستشرق الإنجليزى «ديريك هو بوود» ، فيرى أن مخاوف الغرب من الإسلام راجعة إلى عدم تقديره رغبة المسلمين العميقة فى تحديد هويتهم والحفاظ عليها . . وإلى رد الفعل الإسلامى المتمثل

فى اللغة العدائية لموقف الغرب هذا . . والحل عنده هو فى قبول الغرب بحق المسلمين فى اختيار الهوية والقيم المتميزة . . «إن هناك قليلا من التقدير فى الغرب لرغبة المسلمين العميقة فى إعادة تحديد هويتهم والحفاظ عليها فى وجه هيمنة خارجية . ولكن لسوء الحظ أيضا ، يعبر الإسلاميون غالبا عن ذلك بلغة العداء الحاد للغرب ، فيعززون العداء وعدم الفهم المتبادلين . . إن الالتزام العميق للقيم الإسلامية راسخ لايمكن استئصاله من العالم العربى ، وعلى الحكومات المحلية وبقية العالم القبول بهذه الحقيقة والعيش معها . .» .

ويرجع المستشرق الإسبانى «بيدرو مارتينيث مونتابيث» المشكلة إلى تناقض «التعصب والتزمت» الأصولى مع «الفوضى الغربية فى العقائد والأخلاق والملذات والنزوات الاستهلاكية» . . وإلى عدم تقدير الغرب للمهاجرين المسلمين الذين يبنون فى مجتمعاته . . «إن انعكاس هذه الظاهرة على العلاقة بالغرب سلبى فى الغالب . لكن المسئولية تقع أيضا على الغرب ، فالمجتمعات الغربية تتخبط منذ زمن فى أجواء من الفوضى العقائدية التى يضاف إليها تداعى البنيان الأخلاقى والجنوح إلى الملذات والاستسلام للنزوات الاستهلاكية . . إن المهاجر ، بالنسبة إلى السواد الأعظم من الغربيين ، مجرد بديل عمالى أقل شأنا وخبرة ، وغير جدير بالقدر نفسه من الاهتمام وهو مرفوض ومحارب ومطارد . ويصعب على الغربى أن يقر بالخدمة التى يقدمها إليه المهاجر . . والصورة المضخمة التى تروج عن عدو خارجى خطير هو «الأصولى» ، تحدث ردة فعل لدى المواطن الغربى تزداد عنفا . .» .

ويتوجه المستشرق الروسى «فيتالى ناوومكين» بمطالبه إلى الغرب ، فالمسئولية مسئوليته . . وحل «المشكلة» بين الغرب والإسلام كامن فى : اعتراف الغرب بحق الحركات الإسلامية فى الوجود والعمل . . والاعتراف بحق الشرق فى اختيار طريق التطور وفق قوانينه وسننه . . وفى تخليه - الغرب - عن سياسة فرض المقاييس الغربية على الشرق . . «فالديمقراطية الحق تحتم الاعتراف بالقوى السياسية ذات التوجه الأصولى ، كجزء من المشهد السياسى العام . وإن لكل مجتمع الحق فى أن يعيش حسب قوانينه وسننه . ولهذا يجب أن تتحكم فى موقف الحضارة الغربية من الحضارة الإسلامية قوانين التعايش ، وليس توحيد المقاييس ، وتطبيق المقياس الغربى الواحد على الشرق ، فإذا لم يتفق التحديث مع التقليدية ، استحال الخلاص من الأشكال الدينية المتطرفة . .» .

وترجع المستشرقة الإسبانية «كارمن رويث» المشكلة إلى جهل الجمهور الغربى بحقيقة ما يجرى فى العالم الإسلامى «فالعلاقة مع الغرب ستبقى قائمة ، وستسير فى اتجاهات شتى ، لأن فى الغرب أيضا أصوليات تعيش بجانب تيارات فكرية منفتحة على الحوار . لكن السواد الأعظم من سكان الغرب ضئيل المعرفة بالعالم الإسلامى عموما والعالم العربى خصوصا . .» .

أما المستشرق الهولندى «رودولف بيترز» فيرى فى الصهيونية ، واللغة الإعلامية الغربية مصادر الترويج لدعوى الخطر الإسلامى

على الغرب . . وهى مصادر تهدم ما تبنيه المؤسسات الأكاديمة المهتمة بالإسلام وعالمه . . «فعلى الرغم من أننا فى المؤسسات الأكاديمية نحاول التأكيد على أن الأصولية بعد من أبعاد عدة للإسلام ، وأن الغالبية العظمى من المسلمين تختلف مع الأصولية ، إلا أننا نواجه صعوبة شديدة ، لأن اللغة الإعلامية اليومية تكرس الصورة المشوهة . . فتصور الإسلام هو الأصولية والأصولية هى الإسلام ، وأنهما الخطر الأول على الغرب والعالم الحر . وإذا أضفنا ما يقوم به الإسرائيليون من تضخيم للخطر الأصولى ، على أساس أنه البديل من الخطر السوفياتى ، كانت النتيجة واضحة»! .

وترجع المستشرقة الإيطالية «أداليندا غاسبا رينى» ، مخاوف الغرب من الإسلام ، إلى خلطه بين تجربته الحضارية والتاريخية ، فى علاقة الدين بالسياسة والدولة – وهى التجربة التى خلص منها باختيار العلمانية – وبين واقع هذه العلاقة فى العالم العربى والإسلامى ، الذى لا تناقض فيه – فكرا وتاريخا – بين الدين والسياسة ، ومن ثم فإن الغرب يرى الظاهرة الدينية فى العالم العربى على النحو السلبى الذى عرفه فى عصوره الوسطى والمظلمة . . إن «ما حدث فى الغرب هو أننا خلطنا استقلالية التفكير مع السياسة ، وذلك بغرض التخلص من السلطة الدينية العقائدية التى تغلغلت فى كل مكان . وعمدنا إلى فهم علمانى مطلق علّنا نتمكن من إقصاء القيم الأخلاقية الممثلة بالتفكير الدينى . وربما لم يكن هذا الأمر ممكن الحدوث فى العالم العربى ،

لعدم وجود تناقض جوهرى بين السلطة الدينية والسلطة السياسية وإذا واصلت أجهزة الإعلام ضخ المعلومات الخاطئة والمزيفة وأخبار العنف دون سواها . . وإذا استغرق الناس فى جهلهم كل ما يمت إلى العالم العربى بصلة ، فسيكون من العسير جدا أن يدرك الرأى العام الفرق بين حالة العنف غير المبررة ، والخصوصية الدينية لشعب ما . .» .

والمستشرق الهولندى «يوهانس يانسن» ، إذ يعترف بخوف متبادل بين الغرب والشرق ، يرى فى خوف الغرب من الشرق والإسلام خوفا غير مبرر . . بينما هناك مبررات لخوف الشرق من الغرب . . فخوف الغرب من الشرق هو «صناعة غربية» ، وسببه خشية الغرب آفاق وحدود الدين إذا هى تجاوزت آفاق وحدود مسيحيته . . رغم أنها آفاق خاصة بمجتمعات غير مجتمعاته . . أما خوف الشرق من الغرب - فى تقديرنا - فمصدره الواقع التاريخى والمعاصر للعلاقة بينهما :- «فالمجتمعات الغربية مبنية على علاقات مختلفة بين الدين والدولة . وعندما يسمع المواطن أن الديانات تلعب دورا واسعا وكبيرا فى الشرق الأوسط ، فإن ذلك يثير فيه مشاعر الحذر . وهكذا نجد أن الخوف عنصر متبادل ، فالأصوليون يخشون الغرب ، والغرب يخاف الأصولية» .

أما المستشرقة الإيطالية «دانييلا آمالدى» ، فإنها ترجع النظرة الغربية للأصولية الإسلامية ، إلى الموقف الأحادى الجانب - بسبب العجز عن الفهم أو عدم الرغبة فى الاستيعاب - وإلى

تبسيط وتسطيح المعرفة بهذه الظاهرة ، وهو ما يجعل الغرب يرى فى «المختلف» عنه «خطرا محتملا وسلبية مطلقة»! . . «فالغرب يميل إلى تسطيح وتبسيط الإشكاليات ، فيقع فى مطب قراءة آحادية الجانب لهذه الظاهرة ، ويفقد القدرة على (أو الرغبة فى) استيعاب أوجه الشبه أو التباين بين واقع وآخر فى العالم الإسلامى ، وبالتحديد بين مظاهر وتجليات «الأصولية» . ويؤدى ذلك إلى علاقة معرفية سطحية بالآخر ، علاقة يصبح معها «المختلف» ، بالضرورة ، مرادفا للسلبية المطلقة . . وإلى اعتبار كل ما ومن هو قادم من العالم الإسلامى خطرا محتملا» ! . .

وقريبا من هذا التفسير نجد رأى المستشرق الإيطالى «كلاوديو لوياكونو» . . الذى يرى أن جهل الغرب بجوهر الثقافة الإسلامية هو الذى جعله لايرى فى الظاهرة الإسلامية سوى العنف ، والطابع المعادى للغرب عند بعض الحركات الإسلامية . . بينما ينسى هذا الغرب آثار الخراب التى أحدثتها سياسته الاستعمارية فى عالم الإسلام . . «فالغرب يعرف القليل عن الثقافة الإسلامية ، وما يعرفه من هذه الثقافة لايمثل جوهرها الفعلى . هناك ، حتى فى صفوف أهل الاختصاص وأساتذة الآداب واللغة والإسلاميات ، من يشغل موقعه عن غير جدارة واستحقاق . وإذا ألقينا نظرة على الكتب المدرسية ، سنجد أن مؤلفيها بدأوا يهتمون بالعالم الإسلامى وثقافته فى وقت متأخر . هذا الجهل هو الذى حمل الغرب إلى التعاطى مع الحركات الأصولية من منطلق واحد فحسب ، إنه منطلق العنف . . وبطبيعة الحال ، يجرى التركيز على

الطابع المعادى للغرب الذى تتميز به بعض هذه الحركات ، فيما ينسى الغرب آثار الخراب الذى تركته سياساته الاستعمارية القديمة والجديدة . .» .

وإذا كان الحوار هو السبيل للفهم المشترك وللتعايش بين الحضارات ، فإن المستشرق الإيطالى «سلفاتورى بونو» ، يرى الغرب هو الرافض للحوار مع الحركات الأصولية . . والرافض للتقييم الموضوعى لأفكارها ، وهو معبأ سلفا ضدها . . «فالغرب ، كحكومات وكرأى عام ، معبّأ سلفا ضد الحركات الأصولية ، وليس مستعدا لمناقشة آرائها وطروحاتها ، كما أنه يرفض تقويم هذه الطروحات بشكل موضوعى» .

أما المستشرق الأمريكى «جون فول» ، فإنه لا يرى التناقض فى المصالح دائما بين الأصوليين المسلمين وبين الغرب . . بل قد تتطابق المصالح . . ويرجع سبب التوتر إلى علمانية الحكام الغربيين ، التى تصنع أزمة ثقة مع التوجهات الدينية . . وإلى معارضة الإسلاميين للحكومات التابعة للغرب . . «فالأصوليون العنيفون قد دخلوا فى صراعات مع مؤسسات وحكومات ثبت ولاؤها للغرب وأمريكا . لكن مصالح الأصوليين المسلمين تتطابق فى بعض الأحيان مع مصالح الحكومات الغربية – لنأخذ كمثال معارضة الغزو السوفياتى لأفغانستان – ما يجعل التعاون فى هذه الحالات ممكنا . لكن ، على وجه العموم ، وفق المنظورات العلمانية التى تطغى على آراء صانعى السياسة الأمريكيين والأوربيين

الغربيين ، فإن الأصوليين ، على اختلاف نماذجهم ، ليسوا أهلا للثقة . والعكس هو الآخر يبدو صحيحا ، أى أن قادة الأصوليين لا يثقون بحكام الغرب العلمانيين . وفى هذا السياق ، أدى صعود الأصوليات إلى جعل «علاقات الشرق بالغرب» أكثر تعقيدا ومصدرا لخطر محتمل» .

هكذا انعقد إجماع المستشرقين على أن «الخطر الإسلامى» على الغرب هو «وهم» و «هذر» و «كلام فارغ» و «بعبع» صنعه الإعلام الغربى . . والصهيونية . . والجهل بجوهر الثقافة الإسلامية . . وبتميز علاقة الدين بالسياسة والدولة فى النموذج الإسلامى عنها فى النموذج المسيحى الغربى . . ونبه كثير منهم على أن وراء ذلك كله مؤامرة غربية تستهدف صناعة «عدو» يحل محل «إمبراطورية الشر الشيوعية» . .

اللهم إلا المستشرقة الألمانية «أردموته هيللر» ، التى قالت إن الأصوليين المسلمين خطر كبير على الأمن والسلام ، وعابت على الغرب أنه غير موحد إزاء هذا الخطر؟! . . فعندها «أن الغرب ليس موحدا ، ولا يعرف إجماعا حول هذه المسألة . فالأمريكيون مثلا ، اعتبروا الحركات الأصولية أثناء التدخل السوفياتى فى أفغانستان ظاهرة إيجابية جدا . أَعتبرُ الأصوليين يشكلون خطر كبيرا على الأمن والسلام ، وعلى العلاقات بين الشرق والغرب» .

ونحن إذا تجاوزنا عن هذا الرأى ، الذى انفردت به «اردموتة هيللر» ، سنجد أن المستشرقين الذين استطلعت (الوسط) آراءهم

فى علاقة الحركات الإسلامية بالغرب؟ وخطرها عليه؟ . . قد قاموا «بتشريح الغرب» لا بتشريح الحركات الإسلامية؟! . .

وهى شهادة فخار لموضوعية هؤلاء المستشرقين . . وخدمة كبرى قدمتها (الوسط) إلى القراء العرب عندما وضعت بين يديهم هذا «الملف» ، الذى نرجو أن يصحح مفاهيم الكثيرين من مثقفينا وإعلاميينا المسلمين؟! . .

٤

هل هناك مستقبل للصحوة الإسلامية؟!

فى «ملف» (الوسط) عن «الأصولية الإسلامية» . . والذى استطلعت فيه آراء ثلاثين مستشرقا ، يمثلون دول وتيارات ومذاهب وأجيال الاستشراق الغربى المعاصر . . وقف هؤلاء المستشرقون ، فى ظاهرة المد الإسلامى وحركاته ، أمام قضايا رئيسية خمسة . . قضية مصطلح «الأصولية» ومدى تطابق معانيه الغربية السلبية مع منطلقات وغايات وسمات الحركات الإسلامية؟ . . وقضية الأسباب التى أفرزت وأبرزت هذه الحركات فى العقود الأخيرة على وجه الخصوص؟ . . وقضية الحقيقة والوهم فى الكلام الشائع الآن عن «التهديد الإسلامى للغرب»؟ . . – ولقد تناولنا هذه القضايا الثلاث فى الحلقات الثلاث التى سبقت من دراستنا هذه لهذا «الملف» . .

والآن . . وفى هذه الصفحات ، نقف أمام رؤية المستشرقين لقضية «الوحدة . . والتنوع» فى فكر وتوجهات الحركات الإسلامية . . وقضية «المستقبل» ، وهل لهذه الحركات منه نصيب؟ . . وإذا كان ، فبأية شروط؟؟ . .

الوحدة.. والتنوع:

على الرغم من أن هذه القضية – قضية الوحدة والتنوع فى

توجهات الحركات الإسلامية - لم تكن موضع سؤال مستقل فى «ملف» (الوسط) . . إلا أن جميع المستشرقين الذين التفتوا إليها فى إجاباتهم قد اجتمعت آراؤهم على أن الحركات الإسلامية المعاصرة ، وخاصة فى العالم العربى ، ليست كتلة واحدة صماء . . ومن الخطأ اختزالها فى تيار «العنف الراديكالى» . . فهى ظاهرة فكرية وحركية شديدة التنوع - مع اجتماعها فى إطار المرجعية الإسلامية العامة والمقاصد الإسلامية العامة - . . فهى تتنوع بتنوع واقع البلاد الذى تعمل فيه كل حركة من هذه الحركات . . وبتنوع التحديات التى تجابهها هذه الحركات . . وباختلاف المرجعيات المذهبية لهذه الحركات - من «سنّيّة» و «شيعيّة» . . و «تجديد» و «تقليد»- . وبتنوع مناهج العمل المعتمدة فى عمل كل حركة من هذه الحركات . . فهناك الحركات التى تتخصص فى «الدعوة» الخالصة لإضاءة القلوب بنور الإسلام . . وحركات العمل السياسى والاقتصادى لتغيير الواقع فى هذه الميادين وجمعيات وجماعات العمل الخيرى والاجتماعى . . وهناك الحركات التى ارتضت منهاج التعددية ، والعمل وفق قوانين «لعبتها» . . وهناك ، أخيرا ، حركات العنف والراديكالية السياسية والإرهاب . .

فهى حركات ، وإن انطلقت من المرجعية الإسلامية ، إلا أن فهمها للإسلام ، ومنهاج عملها له ، والجوانب التى تركز عليها من منهاجه الشامل ، قد أوجد فيها العديد من «ألوان الطيف الإسلامى» ، وذلك فضلا عن «ألوان طيف الواقع المتنوع» الذى تعيش فيه وتعمل على تغييره هذه الحركات . .

وفى تقرير هذه الحقيقة - التى يغفل عنها - أو يتغافل - كثيرون - يشير المستشرق الإيطالى «كلاوديو لوياكونو» فيقول : «إن الحركات الإسلامية متنوعة بتنوع واقع بلدانها . . ومن الضرورى التمييز فيها بين أولئك الذين يعتمدون على «الدعوة» الخالصة ، محاولين إبقاء نور الدين الإسلامى مضيئا فى قلوب المسلمين . . ومن يمكن اعتبارهم «ملتزمين ومنظمين سياسيا» ، وهم الذين يولون اهتماما أكبر للقضايا والمشاكل ذات الطابع السياسى والاقتصادى . ومن بين هؤلاء مجموعات تعمل بشكل حازم ضد حكومات بلدانها ، وأخرى ركزت اهتمامها على العمل فى المجالات الاجتماعية . وتوجد أيضا منظمات اختارت الإرهاب أساسًا لعملها السياسى ، فحددت لنفسها بذلك موقعا خارج التقاليد المعتدلة التى اتسمت بها الحركات «السُّنِّيَّة» عبر التاريخ . كما توجد حركات أخرى ارتضت «قوانين اللعبة» ، دون أن يفوتها التركيز على المسائل الاجتماعية الضرورية لإحداث تغييرات فى الواقع المتنوع الألوان والاتجاهات . وينبغى التذكير بأن هناك اختلافات جذرية بين الأصولية «السُّنِّيَّة» والأصولية «الشيعية» . .» .

ويهتم المستشرق الإنجليزى «فردها ليداى» بالإشارة إلى «الجامع» الذى يجمع هذه الحركات ، فيرى أنها لا تقف عند «الماضى والتقاليد» ، وإنما تعيد تفسيرهما كى تقدم برنامجا للحاضر والمستقبل . . ولا تقف عند «التبشير الدينى» ، وإنما تتغيا أهدافا سياسية واجتماعية . . وأنها جميعها تسعى لامتلاك السلطة

السياسية . . فهذه «جوامع» تحتها تنوع واختلاف . . «إن هذه الحركات تختلف بعضها عن بعض ، إلا أنها تشترك فى أمور ثلاثة :

أولا: لا تمثل الحركة محاولة لإدخال الناس فى دينها ، بل لتعبئة هذه المجتمعات الدينية بقصد بلوغ أهداف سياسية .

ثانيا: فيما تستعين الحركة بالتقاليد ، فإنها تعيد تفسير الماضى والتقاليد الدينية كى تقدم برنامجا سياسيا معاصرا عن التنمية الاقتصادية والاستقلال وقضايا اجتماعية .

ثالثا: أهم ما يعنى هذه الحركات هو الوصول إلى السلطة السياسية والاحتفاظ بها» .

أما المستشرق الفرنسى «دومينيك شوفالييه» ، فيميز فى هذه الحركات الإسلامية بين «المتطرفين» و «المعتدلين» ، كما يميز فى عالم الإسلام بين «المسلمين» وبين «الإسلاميين» ، فيقول : «إن الحركة الإسلامية ليست بالضرورة حركة متطرفة . وأعرف مثقفين إسلاميين وأصوليين متمسكين بإيمانهم وقيمهم ، لكنهم قادرون على الحوار ، ومستعدون للسجال مع الذين لا يوافقونهم الرأى ، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين ، وهم ليسوا أبدا انفعاليين كما يظن بعضهم . .» .

ويرى المستشرق الروسى «آرتور سعادييف» أن فى الحركات الأصولية - مع تجانسها الأيديولوجى - المعتدلون . . والراديكاليون . . كما يختلف تركيز كل حركة باختلاف التحديات

التى تمثلها الأنظمة الحاكمة فى بلادها . . «فى الحركات الأصولية اتجاهات معتدلة وراديكالية . . إنها متجانسة أيديولوجيا ، واختلافاتها تعود فى الدرجة الأولى إلى طابع الأنظمة الحاكمة التى تعارضها . . ففى سورية هناك انتقادات للاتجاه «العلمانى» . . وفى مصر معارضة للعلاقة بالغرب . . وفى الجزائر هجوم على النهج الاقتصادى والاجتماعى المعادى للشعب . .»

ويتفق فى ذلك المستشرق الهولندى «رودولف بيترز» ، الذى يضيف ، فى ميدان التنوع لهذه الحركات - غير «الاعتدال» و «التطرف» - المتحررون ، الذين يدافعون عن الإسلام ، وفى ذات الوقت يحاورون الغرب ، ولا يرفضونه بإطلاق وتعميم . . «فلا يمكن الحديث عن أصولية إسلامية فى شكل عام . هناك تيارات معتدلة ، وأخرى متطرفة تؤمن بممارسة العنف . . ومنذ مرحلة مبكرة ظهرت أصولية تحررية ، دافعت عن الإسلام ، وردت على كثير من المقولات التى تنظر إلى الإسلام بوصفه دينا غير متسامح . ودعا ممثلو هذا الاتجاه إلى الحوار مع الغرب ، وإن لم يكن مباشرة ، كما فعل محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ورشيد رضا وقاسم أمين» .

ويشير المستشرق الأمريكى «روجر أوين» إلى دور اختلافات الواقع الذى تعمل فيه هذه الحركات فى تنوعها . . «فكل حركة لابد أن تختلف كثيرا عن الحركات الأخرى ، من حيث ممارستها السياسية الفعلية ، مادام مستقبلها مرتبطا حكما بالتطورات

السياسية فى البلاد التى يعيش ويعمل فيها أغلب أعضائها . وتكاد هذه التطورات تكون العامل الوحيد المؤثر فى مستقبل الحركة . .» .

أما المستشرق الأمريكى «ريتشارد بوليت» ، فيهتم بالإشارة إلى «موازين التنوع» فى هذه الحركات . . فيرى أن جماعات العنف أقلية يضخم الإعلام صورتها . . بينما جوهر الحركات الإسلامية وأغلبيتها ملتزمون ، سلميا ، بمبادئ الدين فى سلوكهم اليومى ، وفى حياتهم الخاصة ، وممارساتهم الاجتماعية ، وهم أصحاب موقف نقدى للواقع الذى يعيشون فيه ، وأهداف اجتماعية يسعون إلى تحقيقها . . ويجمعهم جميعا : العمل على إعادة تأسيس نظام اجتماعى ونظام سياسى على قواعد الإسلام . . فهذه الحركات «يحركها طموح مشترك إلى إعادة تأسيس نظام اجتماعى ونظام سياسى قائمين على الإسلام . . والحركات الإسلامية تشتمل على مجموعات وفلسفات عديدة ومتناقضة . إذ نجد فى صفوف الإسلاميين بعض القتلة وعددا محصورا من المسلحين ، هم الذين يحظون بالتغطية الإعلامية الأوسع ، إضافة إلى عدد هائل من الأفراد العاديين ، الذين يطبقون مبادئ الدين ، بشكل سلمى ، على مستوى سلوكهم اليومى ، وفى حياتهم الخاصة وممارساتهم الاجتماعية والدينية . وبين هذين الطرفين النقيضين ، تأتى الأحزاب السياسية ، والمناضلون ضد الديكتاتورية ، ومجموعات تعنى بخير المسلمين . . ويمكن للمرء أن يعترض قولا وعملا على

الأقلية العنيفة التى تحتويها الحركة الإسلامية ، دون أن ينتقص ذلك من احترامه لجوهر تلك الحركة ، وخاصة على صعيد الدور النقدى الذى تلعبه ، أو على صعيد الأهداف الاجتماعية التى تسعى إليها . .»

هكذا أبصر المستشرقون «جامع الوحدة» ونطاق «التنوع» فى الحركات الإسلامية المعاصرة . . ولم يروا «الأصولية» الإسلامية كتلة واحدة صماء! . .

المستقبل.. والحركات الإسلامية:

ولم يقف المستشرقون من الظاهرة الإسلامية عند تحليل واقعها الراهن فقط . . وإنما تحدث كثيرون منهم عن مكانة وموقع هذه الحركات الإسلامية فى خارطة مستقبل العالم العربى والإسلامى . . وفى هذا الإطار تحدثوا عن خطأ تجاهل الطرف الإسلامى - وهو طرف فعال - فى الحوار الذى لابد وأن تشارك فيه مختلف التيارات ، لتخفيف التوتر القائم الآن . . وعن ضرورة استبعاد العنف ، بإطلاق ، من قبل كل الأطراف . . وعن ضرورة اعتماد التعددية الحضارية - فى العلاقة بين الإسلام والغرب - وذلك لنزع فتيل نزعات الحروب الحضارية والصليبية . . وأكد بعض المستشرقين على أهمية الحركات الإسلامية فى مستقبل العالم العربى والإسلامى ، لأن المستقبل - برأيهم - هو للتيارات ذات الرؤى الإيمانية والدينية . . والإسلام هو محور النهضة ومرجعيتها فى العالم العربى والإسلامى . .

ومن الشروط التى رأوها لازمة كى يكون للحركات الإسلامية فاعلية فى مستقبل أوطانها ومجتمعاتها : ضرورة العمل على كسب ثقة الجماهير . . وتحسين صورة الطرح الفكرى . ، والعدول عن سبل وآليات الفتن فى تحقيق المقاصد . . وتأسيس العمل السياسى الإسلامى على النهضة الدينية والروحية ، استثمارا لحيوية الإسلام ، الذى هو أكثر الأديان حيوية ، والذى يحتاج إلى نهضة دينية ، وليس إلى مجرد «إسلام سياسى»! . .

ومن الآليات التى أشاروا بها ، لإخراج بعض الإسلاميين من «العزلة الماضوية» : دفعهم إلى أن يجيبوا على أسئلة العصر ومشكلات واقعه . . ففى ذلك اكتشاف وتنمية للأرض المشتركة بينهم وبين التيارات الفكرية الأخرى . .

كما نصحوا الذين يريدون سحب البساط من تحت أقدام الحركات الإسلامية مستقبلا ، بأن يحلوا المشكلات والأزمات التى استدعت البديل الإسلامى ، بعد أن فشل العلمانيون - بل وصنعوا - هذه المشكلات والأزمات! . .

فعلى سبيل المثال ، رأى المستشرق الأمريكى «جون إيسبوسيتو» أن الحركات الإسلامية طرف فاعل فى المجتمعات الإسلامية ، تشارك فى الحوار حول شئونه ، ويتوقف حجم نصيبها من النجاح أو الفشل على كفاءة أدائها . ، وآفاق الحرية فى مجتمعاتها . . ذلك «أن الجدال سيتواصل فى المجتمعات الإسلامية ، فى خصوص قضايا تتعلق بالدين ، والهوية الوطنية ، والشرعية والمشاركة

السياسية أو تطبيق الديمقراطية . . وستكون الحركات الإسلامية طرفا فى النقاش حيث يسمح لها أن تساهم فيها . وسيلاقى الإسلاميون النجاح أو الفشل ، شأنهم شأن أى حزب سياسى . .» .

أما المستشرق الإيطالى «كلاوديو لوياكونو» . . فينصح بضرورة «الحوار العقلانى» بين مختلف الفرقاء ، لحل كل المشكلات . . إذ «لابد من إعلاء صوت العقل والحوار . وهى مهمة عسيرة وصعبة للغاية ، تحتاج إلى عمل متواصل ورغبة صادقة . .» . .

ومعه - فى أهمية الحوار - تقف المستشرقة الألمانية «جودرون كرامر» ، التى تقول : «أعارض استعمال العنف ضد الحركات الأصولية . . وأرى أن الحوار المفتوح مع هذه الحركات هو الحل الوحيد القادر على أن يخفف من حدة التوتر ، وأن يعطى لجميع القوى السياسية - داخل النظام وخارجه - الفرصة اللازمة للتفكير والتأمل والتحليل . .» .

أما المستشرق الأمريكى «جون فول» ، فيعظم من مكانة الحركات الإسلامية فى مستقبل مجتمعاتها ، لأن المستقبل هو لحركات الرؤى الدينية ، وخاصة بعد تراجع العلمانية ، وتضاؤل فعاليات برامجها . . فالحركات الإسلامية «تتوقف درجة نجاحها فى صياغة مستقبلها ومستقبل مجتمعاتها ، على قدرتها على نيل تأييد شعبى وتحقق تحسينات ، بدلا من التسبب فى فتنة مدمرة . وعلى وجه العموم ، سيكون للرؤى الدينية الشاملة تأثيرات مهمة فى المستقبل ، مع تضاؤل فعالية البرامج العلمانية الحديثة . .» .

ومع هذا الرأى يقف المستشرق الأمريكى «ريتشارد بوليت» الذى يرى الإسلام هو المرجعية المرشحة للمشروع النهضوى ، فى العالم العربى والإسلامى . . «فلا مفر من أن يلجأ المجتمع العربى والإسلامى إلى اعتماد الإسلام محورا له من جديد . .» .

ويعلق «جاك بيرك» نجاح الحركات الإسلامية فى صياغة مستقبل مجتمعاتها على إقامتها مشروعها السياسى على الإحياء الدينى والنهضة الروحية الإسلامية . . وعدم الوقوف عند البرنامج السياسى فقط . . وعنده «أن الحركات الإسلامية محكومة بالفشل إن لم تكن مؤسسة على نهضة دينية ، وما لم تؤد إلى حركة شاملة (جامعة) فى المجتمع . إنها إذا انطلقت من نهضة روحية لأمكنها أن تبنى ، شيئا فشيئا ، نهضة أخلاقية للمجتمع المسلم . وفى هذه الحالة توفر الفرصة لبناء المجتمعات الإسلامية بناء قابلا لأن يدوم . فالإسلام طاقة وحيوية تدعو إلى الاحترام ، إنه دين حى جدا ، وربما أكثر من الأديان الأخرى ، ومن هنا حاجته إلى نهضة دينية . .» .

أما المستشرق الألمانى «ستيفان فيلد» ، فإنه يدعو إلى دفع الأصوليين المتطرفين لمواجهة العصر ، وذلك بتقديم أجوبة واضحة على المسائل المطروحة . . ومساعدة المثقفين العرب المستنيرين — بواسطة أوربا — على بلورة حلول للمشكلات . . والعمل على ردم الهوة بين الشرق والغرب . . «فعلينا أن نطالب الإسلاميين المتطرفين بتقديم أجوبة واضحة على المسائل المطروحة . أى أن

تدفعهم إلى مواجهة العصر . وعلى أوربا أن تساعد المثقفين المستنيرين فى العالم العربى على البحث عن حلول . . وأن تتيح لهم فرصة التعرف بعمق إلى حضارتها وثقافتها وعلومها ، حتى لا تتسع الهوة بين الشرق والغرب من جديد ، وتنفتح الأبواب على مصراعيها أمام أولئك الذين يتحدثون طول الوقت عن حروب صليبية . .» .

وإذا كان هذا الرأى قد حبذ تحسن «الحالة العلمانية» بواسطة أوربا . . فإن المستشرقة الألمانية «أردموتة هيللر» قد وضعت شروط تحسين هذه «الحالة العلمانية» حتى تستطيع مقاومة المد الأصولى . . فلابد - برأيها - من تغيير العوامل التى صنعت أزمة النظم الحاكمة ، وذلك بإقامة العدل . . والقضاء على الفساد والرشوة . . وإصلاح التعليم . . وتحقيق الديمقراطية . . وإعادة الاعتبار إلى المثقفين . . وإقامة مجتمع مدنى حقيقى . . «فليس هناك ، لمقاومة المد الأصولى ، سوى طريقة واحدة : توزيع خيرات البلاد توزيعا عادلا ، والقضاء على مظاهر الفساد والرشوة ، وإصلاح مناهج التعليم ، وتحقيق الديمقراطية - ولو بصفة نسبية - وإعادة الاعتبار إلى المثقفين ، وتوفير المستلزمات الأساسية لقيام مجتمع مدنى حقيقى» .

هكذا تحدث المستشرقون عن المستقبل . . وعن مكانة الحركات الإسلامية فى هذا المستقبل . . وعن شروط تخفيف التوتر بينها وبين تيارات الفكر الأخرى . .

لكن المستشرق الألمانى «أودوشتا ينباخ» قد انفرد بتجريد الحركات الإسلامية من أى نصيب فى هذا المستقبل . . فهى حركات ضعيفة . . تعانى من فراغ نظرى . . وستنصرف عنها الجماهير عندما تكتشف أن وعودها ليست أكثر من تهويمات ، فتقف وحيدة عارية على قارعة التاريخ! . . «إن هذه الحركات لا يمكنها أن تجد ، لا فى الماضى القريب ولا البعيد ، نظاما إسلاميا يمكنها أن تقتدى به ، وتستمد منه حلولا جذرية للمشاكل المطروحة بحدة . . وهى تعانى من ضعف عميق ، ومن فراغ نظرى كبير . . وحين تدرك الجماهير أن الحلول التى تلوح بها الحركات الإسلاموية ، ليست سوى تهويمات . . فإنها سوف تتخلى عنها ، وتتركها وحيدة وعارية على قارعة التاريخ» . .!

* * *

على هذا النحو تناول المستشرقون الثلاثون أخطر ظواهر العصر الذى نعيش فيه . . الحركات «الأصولية» الإسلامية . . فعرضوا ، من خلال الإجابة على أسئلة (الوسط) ، لمختلف جوانب هذه الظاهرة . . الأمر الذى جعل من هذا «الملف» ، الذى نشرته (الوسط) – فى أعدادها السبعة (٩٦ – ١٠٢) – (٢٩ – ١١ – ١٩٩٣م – ١٠ – ١ – ١٩٩٤م) – مرآة الاستشراق الغربى لأخطر ظواهر الشرق العربى والإسلامى .

إنه جهد صحفى متميز . . حبذا لو تحول إلى كتاب يضاف – فى المكتبات – إلى ما فيها عن الظاهرة الإسلامية من مؤلفات .؟

•• الفهـــرس ••

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

طبع بمطابع الشركة بمدينة السادس من أكتوبر

إلى القارئ العزيز . .

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث . .

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشري .
- د . حسن الشافعي
- د . محمد سليم العوا .
- أ . فهمي هويدي
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقي
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين . .

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر